راکوتیس

obeikan.com

راكوتيس
مجموعة قصصية
خالد عبد المنعم الطراوي
الإسكندرية : حسناء للنشر

الطبعة الأولى / يناير ٢٠١٧
الطبعة الثانية / مايو ٢٠١٧
ISBN: 978 -977-6535-45-9
رقم الإيداع : ٢٣٢٩ / ٢٠١٧

ديوى : ٨١٣
١٤٤ ص ، ٢٠ سم

{ جميع الحقوق محفوظة © }

الإسكندرية ، ج . م . ع
٠١٠١٨٨٣١٣٦١
٠١٠٢٢٨٤٢٨٩٨
المدير العام : عادل أبو الأنوار

المراجعة اللغوية : عادل أبو الأنوار
الإخراج الفنى : أمير مصطفى

obeikan.com

راكوتيس

قصص

خالد عبد المنعم الطراوي

obeikan.com

obeikan.com

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إليها..
ساحرة الشمال .. راكوتيس.
تلك التى أحببتها فكانت هى الدافع والأمل.

أيقونة العشق التى أدمنتها حد العناء.
تلك إشراقة قلم مستمدة من شمسك
الوضاءة.

فأقبلى ما بين السطور من حب وارف بظل
ممتد على خد الشاطئ الذى شهد لقاءنا
الأول..
وميلاد حبك.

obeikan.com

obeikan.com

القطار

سافرت إلي جوهانسبرغ أكبر مدن جنوب إفريقيا وعاصمة محافظة غويتنج لزيارة أخي الذي يشغل منصبًا مهمًا في السفارة المصرية بمدينة بريتوريا... اعتدت زيارته كل عام سبعة أيام كاملة... أهنأ فيها بهدوء مسكنه المطل علي جبل

obeikan.com

شاهق يسمونه غريس ينشق عنه شلال صغير يتوارى بعضه تحت وريقات خضراء انشق لها صخر الجبل.

في القطار المتجه إلى غويتنج تدثرت بمعطفي مرتديًا قبعة مستديرة أسدلها على جبهتي لعلّي أنعم بقسط من النوم الثمين في تلك الليلة الباردة الممطرة، مؤثرًا ذلك على غرفة نومي خشية الوقوع من أسرة القطار المكتنزة كما حدث ذلك من قبل.

ارتطام المطر فوق زجاج النافذة كان يزعجني... ودبيب القطار المنتظر يصر أن يحول بيني وبين هدأة أفكاري..

سمعت منزعجًا تمتمة لرجل كان يجلس أمامي.. يدندن بكلمات غير مفهومة... ينظر نحوي شذرًا بعينين جاحظتين خلف منظار أبيض رقيق يرتكن فوق أنف مدبب.. تعلو وجهه علامات مختلطة بين بلادة وبلاهة. قال معتذرًا.

obeikan.com

- عفوًا سيد خالد ما قصدت إزعاجك.

كنت قد رفعت قبعتي ليرى الهامس المترنم التأفف في عيني.. قطبت مستفسرًا:

- أتعرفني؟!

رد واثقًا:

- نعم.. لقد شرفت برؤيتك في إحدى حفلات الشاي بالسفارة المصرية بصحبة أخيك أحمد بيه... أنا مهندس مصري أعمل بجوهانسبرغ منذ خمسة أعوام بإحدي شركات الإنشاء والتعمير. ترافقني ابنتي المريضة.. هي تعاني ضروبًا من الخيال.

التزمت الصمت بينما تنهد بعمق وطفق يستطرد:

- رأت أمها تخونني على فراشي ومع أقرب صديق لي، كما كنت أظن طبعًا. ومن ليلتها وهي تعاني من أوهام لا علاقة لها بالواقع... تستشعر الخيانة في كل البشر..

obeikan.com

وتظن فيمن يقترب منها أنه يراودها عن نفسها وإن كنت أنا.. هي هناك، انظرْ.

كان القطار خاليًا إلا من بضعة أناس يخيل لك أنهم أصنام أو أموات منهم من غلبه الوسن فشج غطيطه السكون... ومنهم مهاجر بأفكاره عمن حوله.

أما هي فقد رأيتها فتاة مليحة وضّاءة.. في آخر عقدها الثاني.. تداعب قطة بيضاء في وداعة طفل.. نظرت نحوي بحدة وغضب كظيم، لا أفهم لماذا.

ابتسم الرجل قائلاً:

- معي تصميمات لبنايات زخرفية.. أعددتها علي طراز البنايات المصرية القديمة.. ويهمني سماع رأيك إن شئت كفنان.

قلت مندهشًا:

- يبدو أنك تعلم عني كل شيء.
- لا.. لكني سمعت بعض أشعارك منك أنت.
- مني أنا؟!
- نعم.. بالحفلة.. أو نسيت؟

نهض من مكانه قائلاً:

- التصميمات في غرفتي.. سأعود إليك حالاً.

نظر لابنته متجهمًا ثم قال: ربما هي أتتك.. لا تسمع لها قولاً.. ولا تعرها اهتمامك.. حتى لا تفعل بك ما يضيرك.

انصرف في هدوء ... بينما هي كانت تتبعه بعينيها الواسعتين متوجسة منه خيفة حتى اختفى.. ثم تحولت نحوي بنظرة بائسة.. لكني لم أعرها اهتمامي كما نصحني الرجل..

ومن زجاج نافذتي وجدتها تدنو نحوي مترددة الخطى... جلست أمامي وقالت متلعثمة.

obeikan.com

- هل قال لك إني مصابة بالجنون؟

ملامحها كانت نابضة بالحزن.. عيناها ملاذ لدمع يأبى التحرر رغم أنه يحترق.. شفتاها الرقيقتان يابستان من الخوف والتردد.... قلت في نفسي لن أتفوه لها بشق كلمة قالها الرجل حتى لا يستشيط غضبها فتفعل بي ما يعكر صفو رحلتي..

لكنها قالت وكأنها تتوسل ألا أكذّب لها قولاً:

- أقسم لك أيها السيد الكريم إنه ادّعاء كاذب... إنه يراودني عن نفسي.. إنه زوج أمي ليس أبي.. لو كان أبي ما أقبل على ذلك.

جاء الرجل والغضب يأكل ملامحه... يمطرها وابلاً من القول خالط دبيب القطار....

من معطفها جذبها جذبًا شديدًا من لدنه دون مقاومة منها أو شق كلمة مني... استغاثت قطتها تدافع عن صاحبتها

obeikan.com

المسكينة دون جدوى... وكان جزائي منه أنه عنفني بنظرة حادة متحديًا بها صمتي... دفعها أمامه حتى اختفيا.

في غرفتي كنت أنفث سجائري دون وعي مني... فقط أفكر فيما حدث ومضاجع الغيث لم تهدأ بعد.

هل هي من الصادقين كما قالت عيناها؟.. أم هي من الكاذبين الذين يتقنون فن التمثيل بالعين؟

سمعت صرخات لسيدة تتأوه.. عند الباب كانت حيرتي تلسعني كبرد الليلة الممطرة... وتساؤلات تقلب هامتي كما يقلب الموج باطن البحر... ماذا أفعل وأنا قد تشاءمت من تلك الليلة التي تراودني عن نفسي؟.. لكن ليس هناك مجال لهذا التردد وأنا أسمع نحيبًا يمزق الصدور... برفق، واربت الباب.. وجدتها هي دون قطتها.. تصرخ... تبكي تتوسل إليه أن يكف عن ضربها... يلف يديها الناعمتين وراء ظهرها بقوة... يكبلها بيديه الغليظتين... ظننت أنه قد يهدأ

أو يبتعد عنها حين يراني... فخرجت له.. لكنه انتقدني بنظرة غضب.

- ادخل غرفتك ولا تعرنا اهتمامك.

دفعها أمامه بغلظة السيد لأمته.

سمعتها تصرخ... ثم هدأت.

انشقت السماء عن شمس حيرى كحيرتي... أتخرج للناس أم تتوارى وراء غيم المطر؟

على مقعدي الذي مازلت ألعنه... لأني ألعن كل شيء يكبل حريتي... نظرت إليها متمعنًا صفحات ملامحها.. كانت وحدها... ولعله كان نائمًا في ظلمته... قطتها كانت نائمة عند خصرها... من النافذة كانت تنظر في صمت يهاجر بها نحو ما لا أدريه.. اتجهت نحوها بدافع من الشفقة.... جلست أمامها لا أهتم بأي نتائج موبقة... قلت لها:

obeikan.com

- أيمكنني مساعدتك؟

في عينيها مسحة يأس ممتزجة بعناء ودمع ينسكب حتى ابتلت شفتاها اليابستان المطبقتان بصمت على آلام دواخلها... أكدت لها:

- بإمكاني أن أفعل لك كل شيء.

عيناها سكنتا عينيّ تختبران صدق قولي... وبقطرتين انحدرتا منتحرتين... أردفت:

- ابتعد عنا يا سيد خالد... حافظ على حياتك... واحذر زوج أمي لقد سمعته يهاتف أحدًا وذكر اسمك... ولا أظن أنه ذكره في خير...

قطبت باهتمام... طفقت.

- هو خائن بطبعه.. وهو الذي خان أمي في فراشها مع أقرب صديقة لها.. فماتت قهرًا وحزنًا..

opeikan.com

بدأت عيناها الذابلتان تكتمان عبراتها رغمًا عنها... سألتها:

- أليس لك أحدٌ غيره تأوين إليه.

قالت وهي تبتلع ريقها من الحزن:

- ليس لنا أحد غيره.. أمي قالت ذلك.. فكانت تثق به حد العمى.. وأنا الآن أكرهه حد الغباء.. أقسم لك إنه يراودني عن نفسي.

اتسعت عيناها جزعًا.. تكومت في مقعدها.. فقد رأته يقف ورائي غاضبًا.. لامع العينين.. ضغط على أسنانه المفلجة غيظًا.. انتبهت إليه فنهضت أمامه دون كلمة..

قال مهددًا:

- أما قلت للسيد أن يبتعد عنا؟.. كن في حالك هو أزكى لك.

دفعني عنهما مزمجرًا.. جذبها من معطفها ليدفعها أمامه بقسوة.. حاولت التحدث إليه.. لكنه اعترضني وساقها حتى اختفيا. حينها فكرت أن أهاتف أخي.. أو إبلاغ الشرطة بما يحدث.. لكني أرجأت ذلك حتى أبلغ غويتنج.

شعرت أني سجين تلك الغرفة اللعينة.. وتلك الليلة اللعينة.. وذلك الرجل الخائن اللعين.. قد نفد الصبر ولم أحتمل نفسي.. تساءلت والسؤال بحيرة أحر من الجمر.. ترى !! ماذا يفعل بها؟؟ ولماذا لم أسمع لهما صوتًا؟ أتكون قد نامت؟ أو قتلها؟.. نعم.. يفعلها... قتلها ثم ألقى بها خارج القطار.. فليفعل بها ما يفعل.. مالي أنا وكل ذلك؟

لكن أين المفر حين أتوسد عينيها الحزينتين كل ليلة؟ حين يراودني صوتها والنوم يداعب عيني؟ أين المفر حين أغلق نوافذ الشتاء وأهجع لفراش يذكرني بتلك الليلة اللعينة الممطرة؟ قررت أن أنهض لها وليكن ما يكون.

خفية.. نظرت من وراء بابها الموارب.. يبدو أنه قد نسي إحكامه لأكون أنا هنا بقدر من الله.. رأيته يعقد يديها وراء ظهرها بقوة... يحقنها دون أدنى مقاومة منها.. كأنها أسلمت لقبضة الموت... وعلى فراشها بسط قدّها الذابل.. لم تصرخ.. لم تتوسل.. فقط كانت تبكي حتى غلبها الوسن.. فنامت وراح هو يتفقد ما تعرى من جسدها.. بدأ ملامسة نهديها.. ثم.. ثم كنت أنا أفتح الباب تمامًا وقد مستني قشعريرة الدهشة.. قلت:

- ماذا تفعل؟

انتفض من مكانه وقال متلعثمًا:

- أدثرها... ما شأنك أنت؟ وما الذي أتي بك... أما قلت لك ابتعد عنا؟

دفعني بقوة وغيظ خارج الغرفة.. وانهال على وجهي بلكمات متتاليات.. كدت أفقد الوعي لكني تمالكت وصددت لكماته

حتى أبدلته ضربًا موجعًا كأني أصابني مس.. فابتعد عني بصعوبة وأشهر سلاحه.. تسمرت مذعورًا.. ولاحت على وجهه ابتسامة خبيثة.. قال محذرًا:

- مهلاً أيها السيد.. لا تقترب.. ولا تفعل شيئًا يضرك.. (ضحك ساخرًا).. تباً لها رفيقتي.. ممثلة رائعة.. أتقنت دورها كما يجب أن يكون.. أو كما شئت أنا أن يكون.. أقنعتك أنها ابنتي وأني أراودها عن نفسها.. أقنعتك أليس كذلك؟.. كان لزامًا أن تفعل ذلك لتبقى معنا حتى غويتنج.. خوفًا منا أن تترك القطار كعادتك قبل المحطة الأخيرة لتستقل سيارة خاصة لبيت أخيك.

صب في سمعي ما أثار حيرتي ودهشتي.. سألته:

- من أنت؟
- أنا؟ ... أنا مجرد حارس أمين على سلامتك... استلمتك من الإسكندرية دون أن ترانا وعليّ تسليمك في غويتنج

وتنظر... أكان أخوك عليك من الحافظين أم سيكون من النادمين.. ترى كم تساوي أنت عنده؟

حاولت الاقتراب نحوه لكنه سدد سلاحه نحوي:

- قلت لك لا تتحرك وكن حريصًا على حياتك.. هيا.. تقدم أمامي دون مباغتة تندم عليها.

تقدمت خطوة واحدة متثاقلة كثقل أفكاري.. ثم توقفت حين باغتتني بنظرتها له الموحشة.. ومواؤها يزأر وبقوة.. كاد يفتك بها خوفًا منها لكنها باغتته وهجمت عليه بشراسة قسورة.. فاختلفت قدماه من الباب.. أسرعت نحوه لإنقاذه.. لكن القدر كان أسرع في حكمه.. سقط صريعًا تحت عجلات القطار.. وماتت القطة الوفية دفاعًا وثأرًا لصاحبتها. تحت قدميها نفثت سجائري.. هي كملائكة الحب اللاتي أنظم فيهن أشعاري كما أنظمها الآن وأنا عند حافة

الجبل المطل على مسكن أخي الذي تولى الأمر القانوني كله...

أما هي فقد شدت على يدي عند عودتها... قالت:

- ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم...
- ربما.

obeikan.com

obeikan.com

أحدب ميرامار

عند عودته من سوق زنانيري – كليوباترا الإسكندرية – كان قد قضى بعض حوائجه لفندقه ميرامار... رأى السيد طاهر صِبيةً يحاصرون رجلاً يجلس القرفصاء أمام حانوت مغلق.. يتغامزون عليه.. يرمونه بحصوات صغيرات فإذا همّ إليهم ولوا الدبر.. وإذا عاد عادوا.. دنا نحوه وأقصاهم عنه حتى تفرقوا.. فرآه أوضح.. هو شاب أو رجل.. إذا رأيته بوهلة أولى لا يمكنك تحديد في أي عقد هو كائن.. ناتئ الظهر أحدب.. ضخم الرأس.. ملامحه متنافرة حد الدهشة...

obeikan.com

جاحظ العينين... يرتدي ثيابًا رثة.. كريهة هي رائحته.. شعره أسود أشعث.

أخرج السيد من أكياس يحملها فواكه معدودات.. قدمها إليه.. تناولها الأحدب بحذر وفي عينيه حمرة تنم عن وهن ومسحة يأس.. وبيد حانية مسح رأسه وسأله من أين أتى.. لم يجب سؤاله.. إنما اكتفى بابتسامة فاترة.. فطفق السيد يسأله عن اسمه.. فأشار الأحدب نحو لسانه وأذنه بحركتين تنمان عن عدم قدرته على النطق.. هو يسمع فقط..

دعاه السيد للعمل بفندقه.. هو ليس بحاجة لأحدب غريب الهوية.. واهِن البنية، إنما هو في حاجة لشاب يافع يسد عنه قضاء حوائج الفندق.. لكنه يراه بإنسانيته أحوج من أي شاب آخر ليقيه شر الناس أو شر نفسه إذا تملكه القنوط...

وافقه الأحدب.. علت ملامحه ابتسامة عريضة تنم عن سعادة نفسه بما ظن أنه الخير وهو لا يدرك أن بعض الظن إثم.

" فندق ميرامار"

فندق كهل تجاوز السبعين عامًا.. من بنايات الإسكندرية القديمة.. المتميزة بفن المعمار.. البحر قبلته.. والفن زينته.. والبساطة عنوان لا تدركها إلا مشاعر تجردت من كل غاية..

ورثه السيد أبًا عن جد

ولولا إصراره وبصيرته وعطف ابنته ورقة قلبها لكان الأحدب مطرودًا من اللحظة الأولى.. فكان وافدًا ثقيلاً عند زوجة السيد التي أبت ضيافته في بادئ الأمر ونفرت منه واشمأزت.. ثم قبلت غير راضية.. كما أبت له دون غرفة مهملة تليق بوافد غريب من الطرقات.. تحت السلم المؤدي

obeikan.com

إلـى الأدوار العليـا.. نظمتهـا لـه ابنتاهمـا صـفاء ورتبـت.. وقدمت لـه الطعام وأكرمـت.. كلمـا داعبتـه بـالقول انبسطت أسـاريره.. وجـال بـين ملامحهـا الوضـاءة وكأنـه يتفحصـها بغرابة.

قالت لـه إنهـا سـتناديه ونـيس لتـأنس بـه عنـد وحدتها.. هز هامته سعيدًا بهذا الأنس من الجمال والصفاء.. وظن فيهما كل الخير.. وهو لا يزال يجهل أن بعض الظن إثم عظيم.

استقبل شمس حياته بسعادة ورضـى.. وومضة أمل ظن أنهـا ستفسـح لـه الحيـاة كمـا ضـاقت.. أمـا مـا كـان بـين الغـروب والغبش فلا أحد يعرف عنه شيئًا.. ولا أحد سأله.

فـي أيامـه الأولـى.. كـان يـنهض دائمًـا عنـد الغبش ممسكًا هامتـه.. يشـعر فيهـا بضـجيج مسـتعر.. أصـوات مختلفـة مختلطـة.. أجراس الترام الزرقاء تطن فـي أذنيـه حين كانـت تحذره الانتحـار.. صـوت الصِـبية المتغامزين المسـتهزئين..

صوت البارود في الشهر الكريم إفطارًا شهياً مع كسرة خبر وزجاجة ماء.. مع بعض ما تبقى فهو أولى من القمامة..

رداء جديد بالنسبة له ما قدمه السيد من ملابسه التي ضاقت أو تهرّأت ويمكن معالجتها.

في إحدى الصباحات.. اصطحبه السيد طاهر لقضاء حوائج الفندق.. وفي الطريق كان من الناس همس وغمز.. إشارات بالغة الغي.. حتى المتعاطفون معه يشعرونه باختلافه وغرابته.. فالشفقة الأكثر اهتمامًا هي أكثر إيلاماً...

لم يحتمل السيد ما اعتاد عليه الأحدب من سخافة وسفاهة الناس.. وفور عودتهما أوحى لابنته ألا يخرج الأحدب إلا في ضرورة.

استأجر فريق الموسيقى بجامعة الإسكندرية صالة الفندق لعمل بروفات استعدادًا لمسابقة بدار الأوبرا –مسرح السيد درويش– وفي اليوم الأول منها وقف الأحدب بركن منزوٍ

يستمع لفتاة تغني – شط إسكندرية يا شط الهوا – الموسيقى والغناء لا تختلف عليهما روح من بشر... تبادل الغناء بين الطلبة والطالبات... يجتهدون للأفضل... ولا مانع من أغنية خفيفة تنعش آخر اللقاء.. تراقص البعض على أنغامها.. أما هو فينظر تواقًا أن يكون بينهم دون غربة.. يغنى ويرقص.. لكنه يعلم يقينًا أن في ذلك عقباه.. هذا ما أملت عليه الحياة وأملاه عليه البشر.. بينما هو كذلك رأته فتاة مليحة عليها من الجمال رونق أخاذ.. دنت نحوه وسألته- أتراقصني؟

قطب في تجهم وجالت عيناه في ملامحها بيد أنها تراجعت للوراء خوفًا.. لكنها أصرت وسألت وابتسامتها ممتزجة بخوف – أتراقصني؟

هز هامته رافضًا.. وراح يبحث عن الصفاء – ابنة السيد طاهر.. هي بالنسبة له هادية بين صوابه وخطأه.. هي الدالة له على خطاه.. لم يرها بينهم... إنما كان يرى بعين الكراهية الزوجة السليطة تحادث الفتاة التي كانت تغني شط

إسكندرية.. هي لن تهديه إلا لشر إن أمكنها.. هو يعلم ذلك.

عاد يحملق في وجه الفتاة التي أصرت بشقاوتها أن يراقصها.. فابتسم ووافق وظن الخير في نفسه.. وهو لا يعلم أن بعض الظن إثم عظيم.

خرج عن مكانه ومكانته.. رقصت به وانزوى الكل عنهما.. يصفقون كما كان يصفق المشرك عند كعبته.. ثم تركته وحده يرقص كغبي أو مجنون...

تعالت الضحكات كصخب أجراس الترام وقتما كانت تحذره الانتحار.. وراحوا يرمونه بكلمات ساخرات كحصوات الصبية المستهزئين به وقتما كانت تعذبه الشفقة الفارقة بينه وبين سائر البشر.. وقف عن رقصه حين شعر ببرودة الظلم تلسع بدنه الهزيل.. هم لا يبالون منه أوجاعه بل يصرون على الحنث العظيم.. وعودته للرقص..

obeikan.com

خرجت عليهم صفاء.. شاط عقلها حين رأته كذلك.. ينازع الموت روحه.. فجذبته وسط انتقادهم لها.. وذهبت به إلى ركنه الأول.. عنفته بشدة.. عبس وتولى.. غاضبًا لغضبها.. سكن غرفته وسكنه الألم ورفع عنه القلم.. أغرورقت وسادته بدمعه وحيرته.

في تلك الليلة تسلل إلى غرفتها ودخل إليها خلسة.. وجدها نائمة كالملائكة.. كل شيء فيها جميل.. ساحر.. أهدابها المسنونة المتراصة حارسة لباقة عينيها الخضراوتين.. شفتاها بوابة لجنان لا يدركها إلا ملاك مثلها.. وذلك الخط القائم بين نهديها، خط من عسل أو نهر من خمر يطيل العمر...

أيقترب ليرتشف وينهل؟ كلا.. إنه حارسها الأمين.. فكيف يستبيح دروبها المنيرة أمامه؟.. ظل هكذا حتى سرقته أحلام اليقظة من نفسه وأخذه الوسن، وما أيقظه إلا الخيط الأبيض من الفجر.. فعاد خلسة كما أتى في ذلك الصباح خرج معها

للتسوق.. تسبقه بخطوة في غير عادتها.. لذا هو عابس محتج. ماذا اقترف لتؤدبه بهذه الخطوة؟.. هم الذين فعلوا كل شيء.. لولا غيابها عنه ما كان حدث ما حدث، لماذا لم تؤنب نفسها كما تؤدبه بخطوتها الفارقة عنه؟ ظل يؤنبها في نفسه إلى أن رأى شابًا يلاطفها بكلمات معسولات.. شاط عقله وربما قد شاط قلبه فهمّ به لولا أن رأى برهانًا منها.. تدخلت وبدت خائفة عليه فتركه.. وعفت عنه بابتسامتها.. سألت – أيمكن أن يخاطر بنفسه خوفًا عليها؟

لم يخطر لها ببال أنه يغار عليها.. لأنها تعلم يقينًا وبديهيًا أن الشفقة وحدها هي الدافع لها في التعامل معه بيد حانية تمسح عنه ذاكرة القهر والخوف وتضيء له غياهب حياته.. لذا.. هي لم تسأله إن كان ما فعل من دافع خوفه أم من دافع غيرته.. فكان السؤال منها بديهيًا وعليه أن يعي ذلك تمامًا.. وألا يترجم الشفقة إلى الحب.. وإلا.. الحب؟! أو ليس من حقه أن يحب؟ من تلك التي ستهوى قوامه الناتئ

الهزيل؟ وشكله الدميم؟ هل حقًا الحب أسطورة لا يعرف سوى القلوب النابضة بين الحنايا؟ هل حقًا يتجاهل الحب شكل الأبدان والألوان؟.. ربما...

على أية حال – هز هامته مؤكدًا خوفه عليها.. ولولا عقدة لسانه لقال لها صراحة– نعم.. أخاف عليكِ لأني أبصرت بك الحياة التي أحسنت بها الظن...

هو لا يدرك أن بعض الظن جريمة عظيمة.

في غرفته تناول وجبة غدائه.. تكوم في جلسته وألقى برأسه إلى الوراء.. شعر بغبطة تسري بين جوانحه وأركانه.. هاجر إليها.. استحضر عظمة ابتسامتها حين هم بالشاب الذي لاطفها.. كم كانت جميلة وعظيمة.. وفي خوفها عليه حين جذبته من بين الطلبة وعنفته.. كم كانت دافئة..

الحب يبدأ بقطرة ثم غيث ينبت زرعًا أو يقتل نفسًا.

في صباح اليوم التالي رآها تجلس ببهو الفندق لشاب وقور أنيق.. تعلو ملامحها الرقيقة الدقيقة حمرة من خجل.. أو هي حمرة الحب على الأحرى.

نظر إليهما متجهمًا.. حائرًا فيما يرى.. يود لو يسألها.. من يكون؟ ماذا يريد منك هذا الأنيق الوسيم؟ ولماذا تبدين كهالة القمر بين يديه؟ وما سر تلك السعادة التي تملأ روحك الطاهرة.

شعر بدوار يأخذه من نفسه لولا مكنسته التي يتوكأ عليها وله فيها مآرب أخرى، حالت بينه وبين السقوط.. عاد إليه ضجيج الماضي يسحل بدنه.. طنين أجراس الترام تحذره الانتحار.. صوت الصبية المتغامزين.. ضجيج مستعر يحرق دواخله..

سعادة واحدة يمكن أن تكون نعيمًا وشقاءً لشخصين في آن واحد.

لم يلحظ أنها انتهت من ضيفها ودنت نحوه بعين بواحة بالسعادة ووجه مشرق سألته فانتبه...

- ما رأيك في ضيفي؟ إنه طبيب... يريد الزواج مني.

ابتسامة حيرى مترددة بين شفاه مرتعدة.. هي كل ما يملك من قول.. جال بين ملامحها بصمت.. ودّ لو يلامسها أو يعانقها.. دمعت عيناه ثم فاضت.. أحس بضجر وغصة تكتم أنفاسه.. ألقى مكنسته بطول ذراعيه.. ومضى إلى غرفته.

أما هي.. هرولت بناظريها خلفه حتى اختفى.. هي تعلم يقينًا أنه يشعر بالحزن لرحيل قريب قد يتبعه أذى.. لكنها حتمًا ستوصي والدها أن يحرص عليه ويقيه شر الناس.. وستوصي والدتها بأن تحسن معاملته وألا تغلظ عليه.

ربي لماذا خلقتني هكذا؟

في غرفته تكوم باكيًا.. يدفن هامته بين يديه المعقودتين حول ركبتيه.. سترحل عنه وهي النور الذي أضاء حياته.. سيكون وحيدًا بين أنياب أمها تنهش إنسانيته وتعبث بكرامته.. وربما يطرد ليعود للعراء.. ستدعي الزوجة أنه سرق ولن ينصفه السيد طاهر ولن ينجيه من زوابع زوجته.. لذا.. قرر ألا ينتظر قيامته.. فمن الأفضل أن يعود غريبًا كما جاء..

توجه ببصره نحو السماء.. وسألت دمعاته رب الكون:

- ربي.. لماذا خلقتني هكذا؟ لا سلام لي مع الناس والدنيا.. عذبتني نفسي حتى هممت للموت سعيًا.. حتى إذا أتتني السعادة ذهبت عني.. غير أني أعلم أنك الخير.. فأرحني من عذاب الناس والدنيا.

في خلسة من الليل ترك الفندق وعاد لمكانه الأول – وعادت إليه كل الأشياء التي تركها.. كأن الصبية لم يبرحوا

مكانهم.. لكنه لم يكترث حتى أنهم يئسوا منه إلا هي لم تيأس من البحث عنه.. رفعت هامته من بين يديه وجدته دامعًا شاحبًا.. سألته:

- أهان عليك مفارقتي؟ .. ماذا فعلنا لك؟ .. ماذا فعلت أنا لك؟. هل أصابك منا مكروه؟.. أنا أحتاجك.

ابتلت عيناها بدمع الشفقة والعطف.. نهض إليها يمسح عن عينيها ما كان منها..

قبل أن تأتيه سألت عنه أباها – أقسم إنه لم يمسه بسوء.. وأكد لها أنه سيبحث عنه.. أما زوجته لم تعر اهتمامًا وأكدت أن في ذلك خير.. ودونه الفندق أفضل..

عاد معها مرغمًا.. وظن أن قليلاً من الأيام معها هدأة لنفس غير راضية مطمئنة.

عاش أيامه ذابلاً منكسرًا.. لم يسلم من لسان الزوجة التي لم تهدأ عن معانفته إن أخطأ أو تباطأ في عمله.. كانت تنبزه بالألقاب كندائها له – يا أحدب.. وذات يوم اشتد غضبها فسألته – لِمَ عدت؟ فما لنا حاجة إليك.

كانت فكرة الرحيل توخزه كل ليلة.. لكن قليلاً من الأيام معها هدأة لنفسه.

يوم عرسها هو يوم زفافه إلى متاهات العودة.. سكن غرفته زاعمًا أنه قد أصابه برد الشتاء.. والحق أصاب القلب برد الرحيل.. فمن له سواها.

لم يحتمل سماع موسيقى الحفل بصالة الفندق.

فخرج ليراها من بعيد آخر مرة.

ثم غادر وعاد غريبًا كما جاء.

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

obeikan.com

مي

في ساعة متأخرة من يومها أو من عمرها.. لملمت خيوط ذكراها.. وراحت تغزل منها أطيافًا تمر أمام عينيها.. تبتسم تارة وتدمع تارة أخرى...

ابتسمت حين استحضرت حفاوة استقبالها عند كل أمسية شعرية بقصور ثقافة الإسكندرية الشاعرة – مي زيادة – نظمت في الحب أشعارًا أذهلت بها وأذهبت العقول.. سواء كان فيض من حب أو فيض من جفاء.. مع أنها لم تحظ

obeikan.com

بالحب أو لم يمس قبلها أحد من الذين حاولوا اقتحام معبدها دون جدوى.. أو كلما دخل عليها أحد المحراب وجد عندها من الحب ما لا يمكن لقلب من بشر احتواؤه.. لذا كانت تحلم بذلك الإنسان الملائكي الذي يؤمن بحرفها ويعتنق مذاهبها من الحب.. يحتوي كل ما فيها ويكفيها عمن سواه.. فالحب العظيم يكمن بين احتواء واكتفاء.. ظلت تبحث عنه سنين من شبابها الألق المؤرق.. تتمنى أن تسمع طرقات الحب الهامسة الخاطفة.. فتفتح له كل أبوابها وتزيح ستائرها ليدخل لها من كل فج عميق ليستقر في كل مكان فيها...

لكن الحب لا يأتي إلا بغتة.. وذلك أروع ما فيه.

لذلك دمعت حين تذكرت زواجها بابن عمها رغبة من والدها خوفًا منه أن يطمع أحد في إرثها من والدتها.. بينما ابن العم موسر ميسور.. غير أنه شاب وسيم ناجح في إدارة أعمال والده.. جاد بين أقاربه.. لا يقبل المزاح إلا في

مواضعه.. أو في سهراته بين أصدقائه التي لا يعلم عنها أحد من أقاربه شيئًا.

هابت فيه ركنه الجاد أن لا يوافق مشاعرها الدافئة الجارفة بالحب ويكفر بحرفها وتندثر أحلامها الوارفة منذ نعومة أظافرها.. فالإيمان بالمحب أرقى درجات الحب... والدها أكد لها متوهمًا أن الحب بالضرورة يأتي بعد الزواج.. كان لا يعلم أو لا يفهم أن ذلك الحب الذي يقصد إذا ولد فإنما يولد من رحم العشرة والتآلف.. وليس عاطفة الحب الأبية العصية التي تجنح لها أفنان فنان مثلها يسعى تواقًا لعشق يجعل من الحياة إشراقة لا تغيب أو كنغمة تقاسم نبض القلوب.

بعد زواجهما استقر بهما الحال ثلاثة أشهر أو أقل.. ثم مالبث أن عاد إلى ما كان عليه قبل زواجهما.. قلما عاد لبيته مبكرًا.. وإذا سألته في ذلك أجاب حادًا وجادًا أن ذلك ما يقتضيه عمله وأنه لم يتزوجها لتجدول حياته من جديد..

ربما قد اعترف لها في موضع آخر أن لذلك أسبابًا أخرى أخفاها ليس خوفًا منها إنما لجوءًا للصفاء وتحاشيًا لسخافات الزوجات اللاتي يسألن أزواجهن كل يوم وليلة ولا يسأمن – أين ذهبوا ومع من كانوا؟

لم يفهم معناها.. ولم يقترب يومًا ليحتل جزءًا من أرضها الخضراء.. لم يحاول أن يزرع فيها شجيرة تمنحه الوجود بين حناياها أو في سطور أشعارها.. ذلك لأنه لم يفهم معنى الحب.. لم يفهم إلا أن زواجه منها فرض بديهي لأنها غير النساء العاهرات اللاتي قضى منهن وطره وقتما شاء.

دافعت عن أحلامها التي رأتها تخبو أمام عينيها.. جنحت للسلم تارة وانتقدت غيابه الملتزم حد السأم.. وعنفته تارة أخرى دفاعًا عن حقها المهمل فتطاول عليها ضربًا وقذفًا بالسباب.

شكت لوالدها مرات فكان يصلح ذات بينهما ويعنفها حفاظًا على بيتها وزوجها الذي لم يتوان عن طلبات بيته وزوجته.. هو لم يفهم أنها تطلب الحب لا الذهب والطعام.

سئمت شكواها فأسلمت أربعة سنين وليدة للخيبات، سافر زوجها في الشهر الأخير منها إلي تركيا لإنشاء مصنع جديد انشغل به عمن سواه.

تذكرت كل ذلك في ساعة متأخرة من يومها أو عمرها والذكرى تنفع المؤمنين وهي مؤمنة أنها وإن عادت لأشعارها عادت إليها نفسها المطمئنة.. فتهيأت وأخرجت أشعارها تحررها من أدراجها.

في أول ندوة شعرية بقصر ثقافة التذوق استعادت نضارتها وثقتها الممزقة على أعتاب الخوف.. وبدأ القلب يخفق بالأمل من جديد.. ألقت أبيات من قصائدها بصوتها الحالم الأخّاذ.. كانت تتمنى لو تظل طوال الليل تطلق سراح أبياتها

obeikan.com

المقيدة.. إنها سترقص في يومها هذا وتغني لأول مرة منذ زواجها.. فقد نالت من الإعجاب ما فاق تصورها.. تمنت ألا تبرح المكان والزمان لطالما وجدت نفسها الهائمة منذ أعوام.. لكن وقت العودة قد حان.. فغادرت وعادت تغمرها السعادة ويكتنفها الأمل.

عادت تكتب أكثر مما كانت عليه.. شعرت بنشوة تغمرها تكسو روحها الوليدة بنضرة شباب ظنت أنها خبت وليس لها من عودة.. شعرت أنها تخلصت من الخوف وأنها تولد من جديد وليس هناك من أحد يمكنه أن يراجعها أو يرجعها إلى سنوات الانحسار.. وإن كان ذلك هو الزوج الغائب عنها دائمًا وإن حضر.

وفي يوم آخر من أمسيات قصر ثقافة التذوق كانت قد ألقت بعضًا من أشعارها وجلست تستمع للحضور.. وكان عليه أن يلقي أبيات من قصائده فاختار عن عمد ما قد أعده ونظمه في عذوبة صوتها منذ أن سمعها أول مرة.. وبدأ شطره

بوصفه أشعارها قطوفًا دانية كثمار الجنة.. كانت عيناه عالقتين بعينيها.. لم يرَ سواها من بين الحضور.. يستمد إلهامه من بريقها فما كان يعرف أكان قد ارتجل أم ألقى مما أعدّ ونظم.. فلامسها بصوته.. بحروفه التي أدركت أنها ليست لأحد سواها.. لاحت على وجهها ابتسامة رائقة هادئة.. فودّ لو يملك مدادًا لكلماته لأنشدها قصائد بحجم العالم لتظل ابتسامتها وضّاءة أمام عينيه.. لكنه أحس بالإطالة فختم واعتذر.. ثم دنا نحوها فارتبكت.. وجلس جوارها فابتسمت.. كانت تعلم أنه سيأتي.. هكذا باحت عيناه.. التزم الصمت برهة.. وراح يفكر في البداية.. فهي الأهم على الإطلاق.. رغم أن إتقان البدايات ليس ضمانًا لحسن النهايات.. فكر أن يبدأ بالخيط الرابط بينهما.. لملم شتات جرأته التي بُعثرت أمام أنوثتها.. مال نحوها قليلاً وهمس قائلاً إنها من الأفضل وأنه لم يسمع قط شعرًا أفضل من شعرها ولا صوتًا أرقّ من صوتها.. شكرته فطفق دون

تردد أن قصيدته التي ألقاها كان قد نظمها في بديع ما ألقت منذ أن سمعها أول مرة.. وأنه اليوم زاد قصيدته ارتجالاً من هالة وحيها.. ابتسمت وشكرته ثم نهضت معتذرة وانصرفت وتركته في غمرة دهشته وحيرته من انصراف بدّد ما كان يصبو إليه.

هي تعلم أن الخطوة التالية كان سيعرّفها بنفسه.. لكنها أبت.. فقد شعرت بقشعريرة الخوف المريرة.. الخوف من الحب.. فمن يملك إيقاف الحب إذا بدأ شطره الأول من أبياته؟؟

الحب؟! هل يمكن للحب أن يطرق أبوابها بعد كل تلك السنين التي نسيت فيها أنها كانت شاعرة الحب؟ لا.. لا ينبغي أن تفتح له.. لا يجوز لها أن تفعل ذلك وإن كانت توّاقة إليه. لكن الحب لا يعرف أبوابًا موصدة.

حرصت على أمسياتها لتحرر أشعارها وتتمنى في كل مرة أن تراه وتسمعه.. تسمع منه كلمات ليست في الهجاء من شيء.. وصفته في أول تعارف أنه شوبان دون بيانو.. عازف على أوتار الكلمات، يصنع منها ألحانًا للروح لتهيم بعيدًا في عالم شفاف.. كانت تطلق العنان في وصفه دون أن تدرك أن ذلك وليد أفكار تدور حول فلك الحب الذي تدفعه خوفًا بعيدًا عنها.. ترفضه وهي التواقة إلى عالمه.. تمنعه وقلبها الأسير يتوسل اللقاء.. تتمنع وكلها رغبات تموج وتثور من أجله.. الحب إذا أتى ليس له من دافع وها هو قد أتى رغمًا عنها ففتحت له أبوابها وأذنت لشاعرها برقم هاتفها.. وشهد ليلهما كلمات تدفقت من نبع شوقهما المؤرق.. ربما في ليلة أخرى تعانقا فتقابلا هاتفيًا عند شفاههما بقبلات وأحاديث في الهوى حتى سكرا فتحررا من كل شيء.. من المكان والزمان والناس.. من العيب المبرر بالحب.. كان التواصل في كل ليلة لغبش ودّا أن يطول..

حتى تواعدا على لقاء.. وكان يومًا مزاجه حنون.. اعترف بحبه.. أوَ كان لم يعترف آنفا؟! المحبون لا يسأمون وصف حبهم عند كل لقاء.. وصف شوقه وانشغاله الدائم بها.. تكلم كثيرًا فبكت كثيرًا وشكت له قدرًا خيّب رجاءها بأن وهب لها زوجًا كفر بها كما يكفر بالحب.. تكلمت حتى ماجت واختارت أن تغيب عنه بشمسها.. هذا أفضل من حب لا طائل منه ولا أمل فيه...

غابت بخوفها وشوقها عنه وعن أشعارها.. لزمت بيتها وقررت ألا تعود حتى لا يعود هو لأنه بالفعل قد أتى.. غابت عنه كما أرادت لكنها لا تملك من أمر الحب شيئا لتمنعه الحضور في يقظتها ونومها وغفوتها.. كتبت عنه دون أن تدرك ما تكتب أنه كالمسيح مخلص البشر جاء يخلصها من متاهات النفس وعذابات الروح.. لكنه أتى في غير حينه.. وحين أدركت ما خط قلبها مزقت ورقتها وانكبت فوق صدرها تبكي وتكتم فيه نبضات قلب حسور.

obeikan.com

وظلت هكذا حتى اهتدت بل توهمت أنها اهتدت إلى قرار ظنت أنه قد يكون وسطًا.

بعد أسبوعين كاملين من عذابات الشوق المؤرق ذهبت لأمسية شعرية.. قررت أن تتثر أشعارها ثم تعود دون سماعه.. لن تقبل منه كلمة وستغلق أمامه كل الأبواب كما أغلقت هاتفها. ظنت أن بإمكانها كبح جماح الحب الذي يراودها.

حين وطأت قدماها باب القصر انتفض قلبها وودت أن تعود.. إنما يدفعها الشوق إلى الشعر وإليه.. دلفت في القاعة بخوف يهزها.. رأته وسمعته ينشد أشعاره.. فجلست هائمة سابحة بعيدة عنها.. تسمع صوته فقط.. تراه وحده.. أما هو.. حين رآها اختار من أشعاره ما يفيد حبه وشوقه وختم بكلمات لجبران خليل جبران في نصها.

- (تقولين إنك تخافين الحب.. لماذا تخافين يا حبيبتي؟.. أتخافين نور الشمس؟ أتخافين مد البحر؟ أتخافين فجر الربيع؟ أنا أعلم أن القليل من الحب لا يرضيك كما أعلم أن القليل في الحب لا يرضيني.. أنت وأنا لا ولن نرضى بالقليل.. نحن نريد الكثير.. نحن نريد كل شيء.. نحن نريد الكمال.. لا تخافي الحب.. علينا أن نستسلم إليه رغم ما فيه من الألم والحنين والوحشة رغم ما فيه من الالتباس والحيرة)

صفق له الحضور.. لكنه لم يرَ سواها ولم يهتم إلا بها.. فلما رأته يدنو نهضت قبل أن يصافحها وانصرفت عنه وهي التواقة إليه.. لكنها خشيت مصافحته لأنها تعلم يقينًا أن في ملامسته عذابًا واقعًا ليس له دافع.. توجهت لمدير الأمسية واستأذنت بإلقاء الكلمة لارتباطها بموعد مهم.. فوافق مرحبًا ودون تردد.

وقرأت من أشعارها ما نظمته في خوفها من الحب.. ثم ختمت بكلمات للشاعرة فلسطينية المهد واللبنانية – مي زيادة – في نصها:

- (ما معنى هذا الذي أكتبه؟ إني لا أعرف ماذا أعني به ولكن أعرف أنك محبوبي وأني أخاف الحب.. أقول هذا وأعلم بأن القليل في الحب كثير.. الجفاف والقحط واللاشيء بالحب خير من النذر اليسير.. كيف أجسر على الإفضاء إليك بهذا وكيف أفرط فيه؟ لا أدري.. حتى الكتابة ألوم نفسي عليها أحيانًا لأني بها حرة كل هذه الحرية)

أنهت كلمتها وكتمت عبراتها ولاذت بالفرار.. فنهض في إثرها مهرولاً حتى أدركها عند آخر عتبات السلم.. أمسك بها فانتفضت وأرادت أن تمضي فاعترضها.. رأى في عينيها فرطًا من عبرات فضية لامعة.. توسل إليها ألا تبكي..

وأبدي حاجة نفسه إليها.. وعرض عليها الزواج حال طلاقها فابتسمت لأنها لامست صدق قوله..

تفرست ملامحه كمهاجر دون عودة.. وودت أن تلامسه وتسبح فيه وتمتزج ثم...

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

oberikan.com

راكوتيس

راقودة أوراكوتيس.. مدينتي يفوح منها عبق التاريخ.. ملهمتي الحيرى بين أصداف الحب وصراعات الواقع.. هي اسم محفور في قلب الصخر الممتد عبر الشطآن.

أحسو قهوتي كل مساء بكازينو راكوتيس القابع قبالة البحر بمنطقة الشاطبي – الإسكندرية – حضوري المنتظم جعلني سنة من راكوتيس وجعلها فريضة يومية لا غنى لي عنها... كل من فيها يعرفني.. كاتب سينمائي.. أحظى بوافر من الاهتمام والتودد.. مقعدي لا يمسه أحد غيري..

obeikan.com

يسكن تحت لوحة كبيرة للموناليزا أو الجيوكاندا– لوحة الرسام الإيطالي ليوناردو دافنشي – لعله كان يعرف راكوتيس فأبدع لوحته بوحي منها.

فردريك شوبان.. عازف بولندي.. موسيقاه الهادئة شريعة راكوتيس وقانونها الإبداعي.. فصاحبها عازف بيانو من أصل بولندي.. عاشق لشوبان.. يقول عنه.. أسطورة البيانو التي لن تتكرر.. وعاشق هو راقودة فقد آثر بقاءه مع من يحب عن عودته لوطنه.

في إحدى مساءات راقودة.. أذكر أنه قد هاتفني مخرج روايتي –عطش الأيام– يحثني على الانتهاء من المشهد الأخير الذي كان لايزل بحوزتي ولم أنتهِ منه.. كان لا يعرف أني حائر أبحث عن نهاية أو بداية لبطلة روايتي الحيرى في اختيارها بين عاطفة الحب والوطن.

في راكوتيس أوراقي بيضاء متراصة فوق طاولتي.. القلم هانئ بنسائم البحر ينتظر أناملي.. شوبان يدفعني نحو السماء لعلي آتي منها بقبس أو أجد للنهاية هدى...

انتبهت إليها تسألني:

- ألم تنتهِ من قصتك؟

صديقتي نورا.. كاتبة من غزة وناشطة سياسية.. أتت مصر بعد اجتياح الاحتلال الإسرائيلي لقطاع غزة في الرابع عشر من نوفمبر لعام اثني عشر بعد الألفين.. كنت قد تعرفت عليها بإحدى ندواتها عن إعمار القطاع بنادي الأطباء. صافحتها وتفضلت لها بالجلوس وأجبت:

- الاختيار بين الحب والوطن يرهقني ويرهق بطلة روايتي، فكلاهما روح تقاسمنا الحياة.

شعرت بغصتها وحيرتها هي الأخرى.. ما لكل من حولي حائرًا تائهًا عن دربه!!

استفسرت منها فقالت:

- أنت تعلم أني لبثت بينكم عامًا ونصف العام أدافع عن قضيتنا.. وقد دعاني الحب فلبيت.. أحببته حد السعادة والعناء.. نعم أحببته حتى اكتنفني حبه فاستوطن غور قلبي فأصبحت كبطلة روايتك.. حائرة في أمري.. فهل أمكث هنا معه؟ أم أعود إلى بلدي.. وكلاهما أحوج لي من حاجتي لبلدكم.

ابتسمت ساخرة عن ضيق وحيرة وطفقت.

- أعلم أنك تنتظر إجابتي لتكتب نهاية قصتك.
- إنه القدر يا صديقتي.. جمعنا في حين أكتب فيه عن هذا الاختيار المرير.. وربما اختيارك لا يوافق بطلة روايتي.

قالت وفي عينيها دمعات تقترب من الانحدار نحو شفتيها الرقيقتين.

- إني في حيرة من أمري يا صديق.

ابتسمت واثقًا:

- أعرف.. ولقد عطشت أيامك ويجب أن تختاري بنفسك.. إما النوم على صدره أو على أرصفة وطنك حتى ينال حريته.

سألتني ساخرة

- وهل ينال مثلنا حريته؟

اندهشت وقلت مؤكدًا:

- نعم... ولمَ لا؟.. إن طول مدة الظلم يا سيدتي لا تخلق حقاً.

obeikan.com

بعث هاتفها رنة فيروزية (أنا لحبيبي وحبيبي إلي)

تهلل الوجه بعد الحزن وبدت كحمامة سلام بين أغصان الزيتون فنهضت مرتبكة.

- هل تأذن لي بالانصراف؟
- طبعًا، لعل في ذلك ما يروي ظمأ أيامك.

أبصرتها حتى خرجت لتعود إليه.

إن الحب لا يقبل إلا العراء من كل شيء.. إحساس مندفع كرمح منطلق لا يسكن إلا في غور ما أراد، وها هو قد أصابها فانقسم القلب بين حناياها إلى حبين متنازعين على البقاء.. الحب الذي ألفته على قدر فامتزج بها حد المعاناة.. والحب الذي يشدها بحنين نحو العودة للبقاء أو محاولة البقاء بكنف بلدها المحتل، إنه احتضار بين خيارين.

لقد لمحت في عينيها التودد للبقاء وهي مسرعة تسبق إليه خطاها.. أيكون ذلك هو الاختيار؟ ذلك ما دفعني لأن أعود لروايتي وقد قررت المشهد الأخير وأقررت أن الحب هو وطن وخيار أمثل.

راكوتيس... احتفلت ونفسي لبداية أيام الصفاء الواقعة وراء كل عمل أدبي فقد أتممت روايتي ولا حاجة لي إلا لراحة ذهنية أبتعد فيها عن كل شيء عدا راكوتيس وشوبان.

في يوم من الأيام التي ظننت فيها الهناء والهدوء، كنت أحسو قهوتي على مهل وتلذذ فقلما قلت ذلك لأنها غالبًا كانت تأتيني وقت كتابتي براكوتيس.. أما اليوم فلا أقلام ولا أوراق.. فقط هي قهوتي وشوبان..

أمعنت النظر إلى الشاطئ المقابل من وراء نافذة زجاجية قريبة، أمارس هوايتي اليومية بتدقيق وتفحيص لأشكال الناس، فالناس ليست أشباهًا في شيء وإن اجتمعوا على

حالة واحدة، فالسعادة مثلاً تختلف من شكل لآخر وتتنوع حسب قيمة الحدث، والحزن كذلك والغضب والحب وغير ذلك.. تلك هوايتي التي تمتعني وتكسبني الخبرة لأجسد أشخاص رواياتي تجسيدًا يقارب الحقيقة أو بما يسمى في الأدب بالمحاكاة.

بينما أنا كذلك وجدتها منتصبة أمامي وفي عينيها حزن واضح أسير قلت لها مداعبًا:

- وجئتك من قلبي بنبأ يقين.. أليس كذلك؟ تفضلي نورا.

جلست هادئة وقالت إنها جاءت تودعني فليس هناك من أحد يبدلها حبًا خيرًا من وطنها، فسألتها أحدث شيء؟ فقد ظننت المرة الفائتة أنها أرادت المكوث بين راحتيه..

ردت وهي تتمالك دمعها:

- فقط سألته ذات السؤال الذي يحيرني، أوَ يمكنه أن يعيش معي هناك؟ فرد واثقًا ودون تردد بأن بلده أولى.

سادني الصمت برهة وحاولت التخفيف عنها لكنها احتوتني بردها:

- لا تبرر له، فلقد صدق ما قال، بلده أولى وأنا أيضًا بلدي أولى، فأنا جئتكم طالبة العون لا الحب وأنتم أعطيتموني أكثر مما طلبت منكم.
- أناقمة عليه؟

قالت بلا تردد

- كلا.. بل أحبه.. وسأظل في ربوعه ومحرابه.
- وقلبك؟
- سيحترق حتماً ولكن لن يموت، حرقة هنا وحرقة هناك فمن الأفضل أن أحترق هناك.. لكن ثق بأني سأملأ قلبي هناك بحب الناس.. سأغزو بالحب وطني وسأملأ

obeikan.com

الكون كله بصرخاتي وضحكاتي وآلامي.. لماذا أراك متجهمًا يا صديق؟ كن سعيدًا مثلي فأنا أحب أن أراك كذلك قبل أن أعود.

سأملأ الكون كله بصرخاتي وضحكاتي وآلامي.. مسافات ما بين الضحكات والصرخات هي لم تسأم الطريق بينهما.. هي التي تسكنها التقلبات كشتاء راكوتيس.. تارة معه تضحك، تغزوه فتبدأ من صدره لتسكن فيه حتى لا يفرقهما فارق.. وتارة تصرخ وتتألم هناك بين الربوع المحتلة.. فكلما ذهبت هناك ودت أن لا تعود.. وإن أتت ودت أيضًا أن لا تعود.. فكيف تجرأت واختارت العبور من رفح إلى هناك لتسكن جوارًا غير جواره.. ربما إيمانها المطلق بأن الدفاع عن قضيتها مسألة حياة أو موت وأن الحب قدر يمسه الفشل أو النسيان..

وعادت لغزتها وعزتها وأرجأت أنا المشهد الأخير من روايتي لوقت لاحق.. ويبدو أنها لن تنتهي وإن أقررت النهاية.

لم تنقطع عني أخبارها، فقد كانت تهاتفني كل ليلة.. تفند لي ما صادفها وصدمها من واقع كان يروعها ويروّعها.

أما عن الحب فكتبت فيه رسالة هاتفية قالت فيها:

- صديقي الصدوق وأستاذي.. تحيتي لك من هنا.. من غزتي وعزتي.. أقسم لك يا صديق بكل حرف طهور أني تواقة إليه.. عاشقة أنا في محرابه.. ذلك المصري الذي تجاوز معي كل حدود الحب بطهارة ونقاء.. لازالت أنفاسه عالقة بفمي.. وفي منديل أبيض شعرة من رأسه أحتفظ بها.. لا أنام إلا معها.. أقبلها كل ليلة.. أعانقها.. أشكو لها حيرتي.. أغرسها بين خصلاتي ثم أضعها برفق في منديلها فوق وسادتي.. أهو جنون الحب يا صديق؟ ربما..

أعـرف أنـك الآن تقرأنــي مـن راكـوتيس.. تسـمع شـوبان.. متأملاً ذلك السر العالق في ابتسامة الموناليزا.. أبلـغ بحـرَك السلام.. فكم أشتاق إلى نسائمه هذا المارد الحنون.

صديقتك نورا..

ومن درج مكتبي أخرجت أوراقي وكتبت المشهد الأخير من روايتي عطش الأيام... والتي لم تنتهِ بعد..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

obeikan.com

كارولين

- حبيبي أنا آسفة... كنت أتمنى أن أكون معك.. لكن لا يستطع قلبي أن يراك تبتعد عنه.

هذا آخر ما سمعته منها قبل خروج الطائرة من أجوائها المصرية وخروجي أنا من حيز الكمال والتفرد في الحب إلى حيز اللهفة والشوق.. حينها شعرت بغصة الفراق كمسمار

obeikan.com

ملتهب في جوفي، وحنين يجتاحني كإعصار صارم جارف بالعباد الذين أنهكهم الحب.

كنت في بداية رحلتي إلى لندن مسافرًا لأخي للعمل معه بمجمع السلفريدج – أشهر المجمعات التجارية بأكسفورد استريت.. هو يعمل هناك إداريًا منذ خمسة أعوام.. تزوج من إنجليزية اسمها رولا وأنجب منها طفلة هي أشبه بوالدتي الحزينة لسفري رغمًا عني بعد أن مسني شظف العيش بإغلاق مكتب السياحة الذي كنت أشرف فيه على إعداد برنامج الأفواج الوافدة للإسكندرية.

طوال مسافتي تعطشت إليها... زهدت كل شيء عداها.. استحضرت كل ما كان بيننا منذ لقائنا الأول بفندق – هلنان فلسطين – القابع قبالة البحر بحدائق المنتزة.. كنت هناك للتعاقد على إقامة فوج سيفد بعد سبعة أيام من العاصمة الروسية–موسكو– رأيتها ببهو الاستقبال وضّاءة من نور شمس صيفية.. ومن وراء مكتبها يخيل لناظرها أنها لوحة

نابضة لفنان مبدع.. أو هي مخطوطة جمال تسربت من مكتبة راكوتيس.

سألتني حينها بابتسامة فاتنة عن اسم مكتب السياحة التابع له، تسمرت كوثن أصم ولم أنبس ببنت شفة.. في عينيها الرماديتين جذب لا يقاوم.. سألتني مرة أخرى فانتبهت وأجبت–ميرامار – ودار حديث بيننا في إطار شروط التعاقد واعترفت لها بعد ذلك الحين أني لم أنتبه لما تم الاتفاق عليه... فقط انشغلت بها عنها.

من مكتبي هاتفتها بلهفة لسماع صوتها الذي كان لايزل عالقًا بسمعي وذلك بحجة الاطمئنان على الشرط المبرم بيننا والخاص بفوج موسكو.. دار بيننا حوار قصير وددت لو يطول وأعترف لها بما أصبو إليه من تعارف جاد يمنحي الارتباط بها، لكن أرجأت ذلك مخافة الصد والتمنع.

وصلت الفندق في اليوم السابع قبل الفوج في ساعة مبكرة ، فلم تشهد عيني في ليلتها سِنة ولا نومًا.

وفي بادئ الأمر تحدثنا عن البرنامج المعد.. ثم توغلت برفق نحو مأربي منها حتى بلغت السعي وأصبحت قاب قوسين أو أدنى.. واقتربت علي مهل مخافة الاحتراق.. فوجدتها وقد فتحت أبوابها بابتسامة خجلى، فاعترفت لها بما أصبو وبما اكتنفني وجعلني طيرًا سابحًا مسبحًا بجمالها.. لاحت على شفتيها الزاهرة ابتسامة رييع فكان الفجر منها وكانت البشرى وتواعدنا على لقاء.

حولين كاملين كنا قد التقينا على ضفاف الحب أكثر من ألف عام.. هكذا قال تاريخ الحب المختلفة أيامه عن أيام البشر... كنا قد اتفقنا على ألا أتقدم لخطبتها إلا بعد استكمال ما ادخرته لشراء شقة مناسبة تجمعنا.. لكن الحب غالبًا لا يأتي بما تشتهي الروح..

أفلس مكتب ميرامار.. فبحثت عن عمل دون جدوى.. واضطررت لقبول دعوة أخي للعمل معه بلندن.

- انتظرتك وسأنتظرك إلى أن أتعود فمالي أحد سواك.

صوتها كان عالقًا بسمعي.. هزني فانتبهت من غفوتي عند وصول الطائرة مطار هيثرو.

أخي وزوجته رولا كانا في انتظاري.. رولا بيضاء جميلة.. طيبة الكلمة الممتزجة بابتسامة هادئة وقور.. تنطق العربية بنغمة أوربية.. فهي من أصل لبناني.. سافرت بصحبة والديها وأختها الصغرى إلى بريطانيا عقب اغتيال رئيس الوزراء اللبناني –رفيق الحريري– عام ٢٠٠٥ ، فقد كان أبوها من المقربين للنظام ولعب دورًا مهمًا في الحياة السياسية بلبنان خاصة دفاعه عن المقاومة بجنوب لبنان وتلقى حينها مكالمات هاتفية حذرته من الاغتيال فقرر الرحيل في أعقاب الثورة المعروفة باسم – ثورة الأرز.. وفي

لندن استطاع الحصول على الجنسية البريطانية له ولأسرته عن طريق صديق مقرب للنظام الملكي.

ذلك ما ذكره أخي في إحدى المساءات التي جمعتنا فيما بعد.. كما ذكر لقاءه الأول برولا في مجمع السلفريدج وكيف تزوجا..

انطلقنا بسيارة أخي إلي شارع أكسفورد، الطريق الرئيسي في مدينة وستمنستر في نهاية المنطقة الغربية من مدينة لندن...

كنت قد قرأت عن أكسفورد استريت لكن رأيت واقعًا أجمل وأرقى مما قرأت، فمن الأشياء التي بهرتني، النظام ونظافة الشوارع والمحلات الفارهة والمجمعات العملاقة.

في بيته رأيت ابنته ساندي لأول مرة، بالفعل هي أشبه بوالدتي لها ابتسامة طفولية أخّاذة، عيناها تمتلئان شقاوة وحلاوة.. حين رأتني اختبأت وراء كارولين أخت رولا التي

استقبلتني بحفاوة وقور وابتسامة وضاءة كنور الشمس، كانت آسرة أخاذة كقمرقان.. ملامحها عربية الجنوب... لها أنفة واضحة طيبة.. نشأت بيننا مودة تجاوزت حد الضيافة كما سيأتي.

واستلمت عملي تحت مسمى العمل المؤقت، لاختباري عمليًا وأخلاقيًا.. وبدءًا من الأيام الأولى صاحبتني كارولين كل ليلة إلى ما أبهرني وجعلني دائب الدهشة والحب.. الدهشة فيما رأيت والحب على إطلاقه في تلك المدينة النورانية..

بدأت معي بعرض مسرحي لرواية هاملت على مسرح شكسبير جلوب، مسرح شهير أنشئ عام ١٥٩٨ وأقيم عليه العرض الأول لأكثر مسرحيات وليم شكسبير.. كان عرضًا مميزًا ورائعًا.

وفي يوم آخر دعتني لمشاهدة فيلم –الذهب الأسود– بسينما أوديون.. هو أول فيلم أجنبي يصور في الجزيرة العربية بعد لورانس العرب.

وأذكر أني وقفت مشدوهًا أمام ساعة (بيغ بن) العملاقة البالغة من العمر سبعة وخمسين ومائة عام.. أعجبني وأذهلني التصميم الدقيق الذي وضعه.. إدموند بكت.. وحرفية صانعها "إدواردنت"

أصبحت كارولين هي المشكاة التي أنارت ظلمات غربتي، لقد ازددت بها ولعًا وإعجابًا.. غير أني في ذلك الحين من الدهر كنت أراسل فتاتي بمصر وأقص عليها من نبأ لندن كل شيء عدا كارولين.. ذكرت لها شقاوة ساندي ومساندة أخي وزوجته.

كل شيء ذكرته عدا كارولين.. لماذا فعلت ذلك؟ لماذا لم أصارحها؟ ربما لأنها لم تفهم أن القدر أرسل لي كارولين في

ذلك الحين تسرية لنفس مغتربة، غير أنها عاشقة قيد الانتظار وفي العشق غيرة إذا زادت عن الحد انقلبت لغباء.

ذات يوم تأخرت كارولين عن موعدها ولاحظ أخي التوتر في حركاتي وسكناتي.. قال:

- لا تنتظر كارولين الليلة.. فإذا أردت الخروج سأكون أنا معك. نهضت من مكاني في صمت وحزن والتزمت غرفتي في كآبة وسأم.. عزفت عن الخروج تلك الليلة لأن لندن بالنسبة لي هي كارولين، فكيف أخرج لغائب.

ما معني هذه البداية يا كارولين؟ ماذا فعلت؟.. لماذا أشتاق كل هذا الشوق المؤرق؟. وما معنى انسحابي الصامت أمام أخي والتزامي غرفتي مكتئبًا؟ هل هو الفراغ الممل في غيابك؟ لا أعرف وأخاف أن أعرف.

سويعات من الليل قضيتها كذلك حتى أخذني الوسن.

في اليوم التالي صحبني أخي لبيت أبيها، وجدتها أمامي باسمة حتى بدت ثلوج الشمال من فمها.. غمرتني سعادة دون حد أو وصف وعاتبتها بصمت واعتذرت هي بصمت.. سبقني أخي لحجرة الضيوف باسمًا..

فسألتها بلهفة:

- أين أنتِ؟

ردت برقة ودلال:

- هنا
- وأنا؟
- وأنت أيضًا هنا.. هيا قبل أن يخرج أبي من غرفته.

بعد دقائق محدودات كانت قد سألتنا فيها عن ساندي وأختها رولا، خرج علينا أبوها أنيقًا وقورًا.. ملامحه عربية قوية..

obeikan.com

رحب بنا ترحابًا كريمًا وسأل أخي عن ابنته وحفيدته فطمئنه بخير، وسألني عن أحوال مصر، أجبته باقتضاب فسألني أن أزيد فأفضت عليه من خبرها ما أراد.. كان يسمعني بعناية وصمت ويهز هامته متذكرًا أشياء لم يبح بها، وما انتهيت حتى لاحت على وجهه ابتسامة وقور تنم عن إعجاب ورضى.

واعتدل في جلسته وأشعل سيجارة من النوع الفاخر ثم أفاض ذكرًا عن علاقته بأنظمة مصر السياسية.. مالها وما عليها.. وأخبرنا عن دوره في إخماد الحرب الأهلية الطاحنة بلبنان والتي استمرت أكثر من خمسة عشر عامًا وقد أدت إلى مقتل ما يزيد عن خمسين ومائة ألف شخص.. وإعادة الإعمار تحت قيادة رئيس الوزراء الشهيد – رفيق الحريري – حينذاك والذي حين ذكره وقف عن الكلام قليلاً كأنها وقفة حداد.. ثم ابتسم ولوح بيديه في الهواء فخورًا:

– تاريخ لن يُنسي.. لكننا لا نتعلم.

وذكر زوجته في خير ولم ينفق، لعل ذكرها يثير غبار الحزن في نفسه، ثم ختم حديثه عن سبب تسمية ابنتيه كارولين وورولا.. قال هما اسمان لابنتي تاجر يوناني تعرف عليه في لبنان ونشأت بينهما صداقة تجاوزت حدود المسافات. واستمرت حتى قبل عامين لوفاة التاجر الصديق.. وكلا الاسمين يعني المرأة النبيلة الجميلة.

هي بالفعل نبيلة جميلة.. عادت كارولين وبدأنا نخرج من جديد.. وأول شيء فعلته، ابتعت لها من شارع أكسفورد إهداء فضيًا علي شكل أهرامات الجيزة.

بعدها تناولنا قهوتنا بمقهى بروكلين أشهر مقاهي لندن في عمل البن.. هناك كانت المرة الأولى التي وضعت فيها يديها الرقيقتين الناعمتين في حضن يدي ولثمت راحيتهما.. لا أعرف حينها كيف صنعت ذلك ولم صنعته.. كل شيء كان عفويًا حتى إمعاني في عينيها كأنه أمر مفروض.. انتبهت لذاتي وشعرت برائحة الخيانة تفوح من حولي، فثمة

فتاة بمصر تثق في حبي وتطمئن لمشاعري.. تراجعت في مقعدي وتبدل لون بشرتي إلى الاحمرار خجلاً من نفسي ومنها، أحست كارولين وسألتني عن سر ذلك التراجع اللحظي فقصصت عليها حدث من كانت قبلها..

كان يجب أن تعرف كل شيء لأني أحسست منها بسعادة تفور من عينيها وأنا ألثم راحيتها فأشفقت عليها أن يصيبها الحب فتعلو ثم تعلم حقيقة أمري فتنكسر.

قلت لها متلطفًا:

- إن كنت قد رأيتك من قبل ما كنت أحببت غيرك.

ردت بثقة العاشقين الذين لا يهابون اليأس في الحب:

- ليس المهم أن تراني من قبل أو من بعد.. المهم أن تراني بداخلك، وستراني.. غير أني أتمنى لقلبك الخير والسعادة وإن لم يكن لي.

أصررت أن لا أفعل مثل ما أقبلت عليه وأن أتقي حب كارولين إذا بدأ غيثه مخافة الظلم في الحب لأنه أشد وطأة من القتل... فكان ضروريًا أن نتوقف.. فهل فعلنا؟

في ليلة قمرية من الشهر الثالث لإقامتي بلندن.. كنا علي ضفاف التايمز، النهر الذي يدفعك للجمال لتنهل منه كما تشاء كما كنت أنا أمتص الرحيق من الشفاه الزاهرة الجميلة التي همست بفمي لأول مرة – أحبك.

آثرت الصمت المهاجر إلى أعماق نفسي.. أعرف أن هناك شيئًا يدفعني إليها.. يمزجها بداخلي مزجًا لطيفًا.. أهو حاجتي إليها؟؟ لأني صدقًا كنت قد وجدت فيها مأربي وغايتي في ذلك السفر البعيد.. لم أفهم معنى سؤالي الدءوب عنها إذا غابت وانتظاري ليلها وأشعارها التي فاجأتني بنظمها ونطقها.. لم أفهم سر سعادتي حين رأيت ملامحي وضاءة في مرآة عينيها.. لم أفهم أو كنت أخاف أن أفهم. فهل استولت كارولين على قلبي في حين غفلة مني

واستوت؟.. هل كانت تلك الأيام القلائل كفيلة أن تذهب عني رحيق مصر لتكون كارولين هي رحيقي المختوم؟

فأنا لازلت أراسل فتاتي بمصر، تواق إلى معالمها المنيرة وابتسامتها المتهادية كبحر باسم في ليلة صيف، إلى جدائلها التي لطالما عشت تحت ظلالها ملكًا متوجًا على بلدان جوارحها.

وكارولين عزفت كل ألحان التحنان على قلبي الذي تعوّد عليها.. هل التعود في الحب أول تماذج الروح؟.. فلقد استخدمت كارولين كل أدوات أنوثتها لتحتل قلبي الذي أحبته وهي تعلم أن به شيئًا من حب يموت في غمرة الانتظار؟ لكن أنانية الحب لا تعرف التجرد من الحب.

نصحني أخي بالزواج من كارولين لتسهيل الإجراءات اللازمة للحصول على الجنسية، ففعلت وأخفيت الخبر عن فتاتي بمصر.

obeikan.com

أحبتني كارولين حد السعادة وأنجبت منها ولدًا سميته يوسف.. هو أشبه بوالدته في بشرته ولون عينيه الواسعتين.. حتى ابتسامته ممتزجة بحلاوة وشقاوة كارولين.. لم أرَ فيه غير شيء واحد يشبهني، هو نغزة الذقن أو.. طبق الحسن.. كما يسمونها بمصر..

كنت أراه يكبر أمامي كنبتة طيبة جميلة الطلعة.. كما كانت أمه تكبر بداخلي وتملأ حياتي.. كنت أشعر بالسعادة ويوسف بيننا يرتع ويلعب.. وبالشفقة لا الحب كنت أتذكر فتاتي بمصر التي تناسيتها فنستني.. كنت أظن ذلك.

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

بين الرحيقين

في صبيحة يوم غير هادئ.. نهضت من فراشي بعد سويعات من نوم أرق.. يساورني قلق لا أعرف له سببًا.. ربما كانت نتيجة لما فعلته الليلة السابقة، فقد التهمت كارولين زوجتي والتهمتني مرتين أو ثلاث لا أذكر غير أنها ليلة كنت فيها سابحًا بين رافديها، أطوف أرضها المستباحة تحتي وأروي مكامنها دون جهد.. وكلما وطأت فيها نشوتي إزددت ظمأ فأعود متطوفًا أرجاءها وأنكر المنتهى.. فقد

obeikan.com

كانت لذلك تحفزني بجمالها الرائق الفاتن ورشاقتها كأنثى ثعبان تتلوى فتفرز مادتها الأنثوية أمام أفعوان ملتهب يترقب إشارات البدء.

فركت عيني فانتبهت إلي أنها ليست بجواري، أغلب الظن الذي ساورني حينذاك أنها تعد لي الفطور في عادة غير منتظمة، وبدأت أترنح مثقل الجفون والخطى حتى وصلت إلى المطبخ.. لم أجد أثرًا لفطور معد إلا كوبًا مكسورًا على الأرض وبقايا من قيء طري دافئ، اكتنفني الذهول برهة وحفتني الظنون بما لا أهوى، اتجهت مسرعًا لغرفة يوسف ولدنا الوحيد والمكان يدور من حولي – فما وجدت إلا أثر القيء الطري على فراش يوسف.. تفحصت الغطاء المبلل بالقيء وقد أدركتني هواجس الخوف.

اتصلت على هاتفها وجدته غير متاح، فاتصلت على رولا أختها وزوجة أخي قالت إنها لم ترها منذ يومين وآخر مكالمة بينهما كانت البارحة ولم تشعر منها بشيء يخالف عادتها.. أما أخي فقد ظن أنها تبتاع بعض حاجيات للبيت.. ولكن أي حاجيات وأنا آتيها بكل ما تطلب من مجمع السلفريدج الذي أعمل فيه إدارياً منذ أكثر من عامين؟. كما أنها لم تخرج ويوسف إلى أي مكان بلندن دون إخطاري وموافقتي.

انتظرت ساعات النهار ولم تأت ولم يأتنا أي خبر عنها حتى أصبحت وجبة دسمة سائغة في فم الشيطان يقلبها ويمضغها كما يشاء.

وأسدل الليل ستائره وأخي وزوجته معي منزعجين وقد سادهما اضطراب قابض على صدريهما.. بينما أبوها يدخن سجائره بشراهة وقد ظن أنها اختطفت انتقامًا منه لمواقفه السياسية ضد الاحتلال الصهيوني لجنوب لبنان أثناء عمله

كمساعد لرئيس الوزراء الشهير – رفيق الحريري –.. لكن سرعان ما نفض ذلك الظن وقال إنه إذا كان ذلك كذلك لكان من الأولى أن تتم عملية اختطافه أو اغتياله إثر قدومه لندن منذ عشرة أعوام بصحبة زوجته المتوفاة منذ أعوام سبعة وابنتيه كارولين ورولا.. وذلك على غرار الحادث الأشهر والأكثر ارتباطًا وغموضًا في لندن حتى الآن، مقتل رجل الأعمال – أشرف مروان – إثر سقوطه من شرفة منزله بمنطقة سانت جيمس بوسط العاصمة البريطانية في السابع والعشرين من يونيه عام ٢٠٠٧.

سألني أبوها هل آذيتها في شيء؟ كلا لم أفعل، بل أفعل كل ما تحبه لترضى.. إذن أين ذهبت؟ ولم؟

شعرت حينها بلهفة تجاوزت إحساس الزوج بزوجته.. أتراني قد أحببتها حينذاك؟ فقد أقبلت على زواجي منها عملاً بنصيحة أخي لحصولي على الجنسية البريطانية وعمل دائم بعد إغلاق مكتب السياحة الذي أشرفت فيه على برنامج

الأفواج الوافدة للإسكندرية.. أوَ كان قد اكتمل الحب بعد أن أنجبت لنا يوسف ورأيته ملاكًا صغيرًا بيننا يرتع ويلعب؟

هل يمكن لقلب أن يعشق اثنتين في آن واحد؟ رحيقين تفصل بينهما مسافات وأقدار؟ ربما.

فرحيق مصر كان لايزال عالقًا بفمي وقلبي وكياني... لم أستطع الخلاص منه أو الخروج عن أرضه وإن كنت بأرض غير الأرض، ولم أستطع الإفشاء لها بأمر زواجي خوفاً عليها ولأني كنت أعلم أنها لاتزل تواقة لحبيب مهاجر عنها.. هل هي كانت قيد الانتظار وكنت أنا بقيد الحيرة بحنين إليها؟ لقد حاولت الابتعاد عنها برفق حتى لا أسلبها الروح مرات.. واختزلت رسائلي في السؤال عنها بعيدًا عن الحب فربما يأسرها حب غيري.. كل ذلك كان من قدر الحب كما سيأتي.

أخطرت قسم الشرطة التابع له بحادث الاختفاء الغامض.. وسألنا الضابط المسئول واستفسر عن كل شيء، شعرت حينها أنه يقلبني ذات اليمين وذات الشمال على مشواة الحنين فاحترقت على مهل، وتردد بصدري نشيج علت على أثره دقات قلبي جذعًا وشوقًا.

وأخطرت السفارة المصرية ووعدني مسئول الجالية بمتابعة الحدث والاهتمام.

لم يتوان أحدٌ منا في البحث عن كارولين طيلة ثلاثة أشهر إلا قليلاً، فيها نخرت الحيرة أوتادي وهدتني قلة حيلتي ووجدتني لا أملك غير التضرع لله والصلاة لهما.

أهملت كل شيء وكدت أفقد كل شيء لولا مدير عملي المتفهم حالتي نصحني فمنحني أجازة لمدة شهر أعود فيها لمصر لاسترداد صحتي التي أنهكتها الغيبة المؤرقة وعذبها البحث دون جدوى.. ترددت في بادئ الأمر ثم اضطررت

لذلك أمام إصرار أخي وزوجته ووعداني أن يبلغاني بأي جديد وإن كان غير ذي قيمة.

عدت لمصر كشبح هزيل شاحب، أجر ما تبقى مني من حطام وخيبة، كما لم تبخل الحسرة ولا اليأس أن يتبعاني، وأول ما اشتهت نفسي لقاء أمي التي بكت حين رأتني فأبكتني.. كنت في أمس الحاجة لجنتها المبسوطة تحت قدميها، إلى صدرها الرحب الحنون لأتطهر من الهم والغم وتهدأ روعاتي.. لا أذكر كم من الوقت قضيته في رحاب صدرها وفيم كنت أفكر.. طوقتني بذراعيها الحانيين ونصحتني أن أدعو.

- اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمعني على ضالتي.

ثم قرأت وهي تمسح بيديها رأسي قوله تعالى:

(يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير)[١]

وبعد أن هدأت تمامًا قصدت فندق هلنان فلسطين القابع بحدائق المنتزة ثمة أشياء تدفعني إليها، تجذنبي دون كذب أو مراء من نفس تواقة، أهي حاجتي إليها وأنا أضيع بين اليأس والشقاء؟ أهو الاشتياق لأرضها الوافدة بعطايا الحب؟ أم هو الحب في مجمل ذلك وغير ذلك؟ رأتني أميرة كأنها تحلم.. تهلل الوجه الوضاء بسحابة سعادة تسبح في سماء جمالها الرائق.. وبتلقائية اللقاء بعد الشوق أسرعت نحوي تعانقني أمام الناس دون خجل، ثم عقدت حاجبيها بدهشة حين رأت دمعات من عيني مسحتها بأطراف أناملها.

أنا أحتاج إليكِ، إلى الخلاص مما أنا فيه.. أدخليني في صدرك، في قلبك الرقراق.. المهم أن أكون بداخلك أتدثر من

(١) آية ١٦ من سورة لقمان

برودة الخوف وسطوة القنوط.. ولا تخرجيني أبدًا حتى أشفى أو أموت.

هل قلت لها ذلك؟ هل قرأته هي في عيني؟ لا أذكر غير أنها حملتني على بساط من تحنان وحب إلى الشاطئ القريب من الفندق.. شرحت لها كل شيء وأفضت عليها بما لم تحط به خبرًا.. أوضحت لها الأسباب التي دفعتني للزواج بكارولين كما نصحني أخي بالتعجل به ضمانًا لتعزيز مكاني بلندن.. وكيف كنا وكيف أصبحت أنا وحدي.. واعترفت لها بسبب إخفائي عنها كل ما تقدم خوفًا عليها من فتنة الظنون ولأني لازلت أرغبها.

أنصتت حتى أتممت ما كنت راغبًا فيه من البوح الجاثم على صدري.. وجدتها تاهت وراحت عني تفكر في شيء لم تفصح عنه، ثم عادت مبتسة وواستني بقبلة أضاءت ما حولي.. وسألتها الصفح الجميل فأجابت ولم تعاتبني. فكيف لا تصفح وهي من الصادقات في الحب، حينها عرضت

عليها الزواج برغبة ما خبت يومًا وما هدأت، وذلك دون أن أفكر في عواقب موبقة من الممكن أن تهلكني أو تهلكها ذات يوم.. لكني أردت أن أفي بما عاهدت نفسي عليه قبل سفري، غير أني أحتاج إليها والاحتياج غاية تبرره الدوافع ودافعي هو الحب، لكنها أبت وأنكرت ما طلبت وقالت أن لا حاجة لي للزواج منها قدر احتياجي لزوجتي التي حتمًا ستعود، وأن الغرض منها ما هو إلا تسرية لنفس مهيأة للموت بدوافع اليأس.. ونصحتني أن أعود لأبحث عن كارولين من جديد.

رفضت منها كل ما قالت وأكدت لها أنها لا تزل محبوبتي ورحيقًا لم يغادرني وأني أحتاج إليها دون ضرر.. زواج لا يعلمه أحد مني سوى أمي وأهل بيتها.

ها أنا بين يديكِ.. لا أملك من أمر نفسي شيئا.. وأنت الآن تملكين عليها كل شيء.. فاختاري لها ما تشائين وترفقي.. غير أني أبتهل إليكِ متوسلاً ألا تدعي قلبي يسافر دونك.

ذلك ما باحت به عيني أو قلبي أو أنا بلسان حالي.. أو هو الصمت البليغ البالغ غاية المعنى.. المهم أنها استشعرت رجائي وحفها الصمت تفكر وهي تنظر نحوي بعين حائرة ما بين الاحتياج الذي تبرره دوافع الحب وبين خوف من آت مبهم.. ثم ما لبثت أن تحول وجهها إلى صفحة مشرقة وقرأت في عينيها.

ما ظنك بقلب أحبك؟ ما كان ليقبل لك متاهات النفس والشقاء.. سأتبعك إلى ما وراء العالم.. سأغوص بداخلك وأسكن فيك كي لا يفرقنا الموت.. سأتبعك إلى حيث شئت ومتى شئت لأني أحتاج إليك قدر احتياجك للحياة.

وبعد سبعة أيام من لقائنا الأخير دخلت بها عند أمي التي باركت زواجنا لطالما كان راحة لي من آثام اليأس والكفران.

قضيت معها عشرة أيام بين جنة ونار.. جنتها التي غمرتني بوافر عطاياها والنار التي لا تزال متأججة لغياب كارولين

ويوسف... كانت أميرة هي القوة الدافعة لي للحياة.. المشكاة التي بنورها أضاءت ما حولي بعد ظلام كنت فيه إلى الموت قاب قوسين أو أدنى.. وكانت دائمًا تطمئنني وتذهب عني الروع وظنون اليأس وتؤكد أنهما سيعودان.

في اليوم الحادي عشر من زواجنا كنت أقرأ رواية (عودة الروح) لتوفيق الحكيم.. أكانت هي الصدفة التي جمعت بين الرواية وبشارة أخي بعودة كارولين؟ لم أكذبه ولم أصدقه إلا بعد أن سمعت صوتها بلهفة ووحشة وبرجاء تدعوني أن أعود وفورًا..

غمرتني بسعادة بالغة نطقت بها عيني.. وما إن رأتني أميرة على حالي فأردفت:

– أما قلت لك أنها ستعود؟ وعليك أن تعود.. احجز طائرتك.

قلت وأنا أطير من سعادتي:

- سأجهز حالي وأعود مبكرًا.

وأخرجت حقيبتي وبدأت أصف فيها ملابسي.. فدنت أميرة وصفت عني ثم قالت بهدوء:

- من الممكن أن لا تعود إن كان زواجنا سيكون عقبة أمامك.

أمسكت يدها وتفرست عينيها الجميلتين وطبعت على شفتيها قبلة لن أنساها.

- ستبقين زوجة لي إلى أن أموت.

واندفعت لصدري تبكي وتشدني نحوها شدًا كأنها بذلك أرادت أن تدخلني إلى أعماقها.

وعدت بلهفة إلى كارولين.. في بيت أبيها كان اللقاء.. حين رأتني اندفعت نحوي تقبلي وطافت في أنحاء وجهي بفمها فرفعتها عن الأرض بين يدي وتطوفت بها حول نفسي

obeikan.com

التواقة إليها.. وكدنا أن نطير إلى خارج العالم الرحب لنكونا سويًا دون أحد..

سألتها عن يوسف، كان نائمًا، رأيته باسم الثغر تداعبه الملائكة.. انحنيت فوق رأسه ومسحتها بوجهي.. ثم سألت كارولين، أين كنتما؟ قالت إنها نهضت في اليوم الأخير على بكاء يوسف.. كانت حرارته مرتفعة لحد يثير القلق.. فذهبت به للطبيب وتركتني نائمًا لأستطيع مزاولة عملي في الصباح دون أن يداعب الوسن أجفاني.. ولم تستغرق هناك إلا دقائق وابتاعت ما كتبه الطبيب.. وعند عودتها صدمتها سيارة صدمة أطاحت بها دون يوسف وترتب عليها ارتجاج بالمخ مما أسفر عن فقدانها الوعي والذاكرة.. وحملها صاحب السيارة وزوجته لمشفى كروم ويل ولم يستدل أحد على هويتها.. واستغرق علاجها ثلاثة أشهر وأيامًا آخر من شهر رابع.. وبعد أن شفيت وبدأت تلملم خيوط الحياة

وانتباهات الزمن والمكان طلبت من الرجل الذي صدمها ولم يدعها يومًا أن يذهب بها لبيت أبيها ففعل.

وتقدمت أنا بعد ذلك للعمل بمكتب سياحة استطعت من خلاله التواصل بين الرحيقين.

obeikan.com

obeikan.com

بائعة الياسمين

في ليلة صيف عانق فيها القمر مكتملاً صفحة السماء.. كنت قد اعتدت الخروج إلى البحر في زاوية من الهدوء متأملاً الطبيعة والبشر.. فأنا أرسمهما بريشتي كفنان.. أحاول الوصول في لوحاتي نحو الأسرار الكامنة وراء الأبعاد الظاهرية لكل منهما.. فأما ما وراء الجمال من الطبيعة فسر يكمن بين الكيفية والسببية الواقعين مسبقاً بين الكاف والنون (إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون)

obeikan.com

وأما البشر فثمة أبعاد ظاهرية دالة على جوهره – كما كنت أعتقد ذلك – أو كما قرأت في كتاب (ميزان الجواهر في عجائب هذا الكون الباهر) للمفكر الإسلامي الذي رشح لجائزة نوبل للسلام عام ١٩٣٩.. قال فيه (ذكر أرباب الصناعة كالحدادة والنجارة وأصحاب التجارة فما منهم إلا وله سحنة مخصوصة وأحوال وحركات وأخلاق تناسب صناعته فتجد غلظة الطبع في الحدادين وكثرة اللفظ والمماكسة في صغار التجار وحب المشاحنة في المكارين وهكذا، فما كانت تلك الظواهر إلا عنوانًا على البواطن)[٢].

لكن فهمت بعد ذلك من قوانين الواقع أن أحيانًا ظاهر الإنسان يكون عنوانًا كاذبًا لجوهر خادع.

كانت صفحة البحر مستوية هادئة لا موج فيها ولا رواسي.. تهب لناظرها شاعرية الكلمة والفكر.. السماء صافية نجومها

(٢) المؤلف – الشيخ طنطاوي جوهري

obeikan.com

كجوار شامخات في علياء متلألئ.. والقمرقان لا يغيب عن ليل دافئ لطيف.

كنت أنظر إلى ما وراء ذلك من جمال عالق في جنبات الكون.. بينما أنا كذلك.. سمعت صوتًا أخرجني من تأملي.. التفت إليه بصمت كاظمًا الغيظ.. وجدتها خمرية اللون.. لا شرقية ولا غربية.. خليطًا من طين الأرض خلقت.. عيناها حقول خضراء يانعة تسر الناظرين.. شفتاها بارزتان لا يمكن لمخلوق أن يراها دون أن يدعو نفسه لقبلة لو امتدت للغبش ما سأم... تتدلى عناقيد الياسمين من بين أناملها.. تعرضها بابتسامة فاتنة تسحر أمثالي لشراء كل ما لديها وقد فعلت..

في غمرة الإعجاب يكون الجنون.

رأيت فيها موضوعًا للوحة جديدة إذ شئت أنازل بها كل فنان وأديب عن الجمال يتحدث.

عرضت عليها ذلك مقابل شرائي كل عناقيدها المتلألئة بين أناملها لمدة ثلاثة أيام فوافقت.. في اليوم التالي أحضرت جعبتي وبدأت أخط ألواني فيما بدا منها وما لم يبدُ.. كنت أرسمها وأنا أظن أن جمال الشكل مرآة للجوهر وإن بعض الظن جهل عظيم.

لم أتحدث إليها إلا قليلاً.. فكنت أكترث أن أكرس أفكاري لمضاهاة الشكل في كل خط ولون.. استغرقت اللوحة خمسة أيام وأردت أن أزيد ولكني آثرت الاكتفاء بما أنجزت.. صافحتها شاكرًا وتمنيت أن لا أرسم سواها فقد أيقنت حينها أنها اللوحة التي يمكن لأي فنان أن يرسمها بشكل مختلف أكثر من مائة مرة.

في صومعتي بسطت لوحتي فوجدتها بيضاء خاوية من كل خط ولون.. تلك هي لوحتي لا سواها.. أين ألواني هل ماع حبرها؟ أو كان اللقاء حلمًا أو خيالاً؟.. كلا.. إنها حقيقة لا

حلم أو خيال.. حقيقة فرت إليها ألواني كما يعود الطير سابحًا إلى عشه بعد غربة المسافات.

وعدت إليها أرسمها من جديد.. وما إن انتهيت وعدت إلى بيتي باسطًا لوحتي إلا وجدتها بيضاء كما المرة الفائتة.

ومن الفنون جنون.. ومن الجنون إبداع أو فكر فاسد يتبعه أذى.

كنت أذهب إليها كل ليلة.. أروي بها ظمأ جنوني وانشغالي الدائم بها.. أرسمها أو لا أرسمها.. أفيض عليها نظمًا من شعر في جمالها.. علمًا بأن لا علم لي بنظم الشعر وبحوره.. لكني معها كنت شاعرًا ومؤرخًا يؤصل كل ما فيها إلى بهاء كليوباترا ملكة راكوتيس.

أما هي فكانت متوهجة معي.. دائمة الابتسام في خجل وسعادة.. أكانت سعيدة بما تسمع مني وما ترى؟ أم كانت سعيدة بما أبتاع منها من عناقيد وردية بها بقايا من رائحة

obeikan.com

الياسمين؟ المهم أني رأيت في عينيها الواسعتين سعادة وقبولاً.

غابت عني ذات ليلة.. سألت عنها بائع الشاي العجوز قال لا علم له بها، وسألني هل آذتك في شيء؟

نعم آذتني بهذا الغياب وقد اعتدت عليها.. ما الذي يدفعني بهذا الشكل إلى ذلك الشكل الذي أصبح لا يفارق نومي وغفوتي وانتباهات صحوي؟ مالي أبحث عنها كتائه يبحث عن دربه؟ لعله جنون الفنون.

في اليوم التالي سألتها بلهفة.. أين كنت؟ انتظرتك البارحة. ودعوتها لجلسة خلوية ببيتي فنفرت وتحول وجهها إلي جمود وقالت إنها فقط تبيع الياسمين.

عدت إلى بيتي بأفكار مزدحمة.. ورغبات جامحة لا حد لها وما كنت عليها بمسيطر.. تقذفني نحوها في كل اتجاه وتشتد حين أراها معي على كل شيء.. تحتل وحدتي

opelkan.com

بأنفاسها الممتزجة بأنفاسي.. تقاسمني مأكلي ومشربي.. تستعمر أفكاري وفنوني بديكتاتورية لا غالب لها.. وكنت إذا تركت لها البيت وآثرت عنها التحلل بين البشر لأختفي أو تختفي وجدتها كل البشر.

لماذا أراك علي كل شيء

كأنك في الأرض كل البشر

كأنك درب بغير انتهاء

وأني خلقت لهذا السفر

إذا كنت أهرب منك إليك

فقولي بربك.. أين المفر؟..[٣]

(٣) بقايا.. من أدب الشاعر فاروق جويدة.

obeikan.com

سافرت عنها لصديق أثق في قدرته وخبرته النسائية.. وأثناء الطريق كنت قد رأيتها على كل شيء.. على صفحة السماء من وراء نافذة القطار فكانت كسحابة تظلني وتمنع عني قيظ شمس ملتهبة وهي لا تدرك أن لهيبها هو الأقوى.. رأيتها نائمة في حقيبتي الزاخرة بأوراق وأقلام الألوان فكانت كوليد تداعبه أطياف ملائكية.. وظل وجهها هكذا لا يفارق عيني أينما نظرت.. فحاولت الانفلات منها وقد فعلت.. فقط رسمتها في ثمانية أوراق على ثمانية أحوال.

حينما رآني صاحبي أدرك بفطنته النسائية أن هناك امرأة ليست عادية اخترقت فاقتحمت حياتي الهادئة.. فليست كل النساء قادرات على اقتحام حياة الفنان.. سألني عنها فذكرت له كل شيء وأخفيت أنها بائعة الياسمين في شوارع مديني وإلا اتهمني بالجنون لأنه يعلم يقينًا من أكون.. فأنا من استعصمت عن امرأة راودتني عن نفسي وكانت تملك مفاتيح

السعادة في الأرض بملكها ومكانتها، فكيف أبوح له بحقيقة أمري؟

أنصت باهتمام حتى فرغت من قولي، فأدلى بدلوه واغترف من خبرته ما حاول به أن يخرجني من ذنب اقترفه قلبي في غفلة مني.. هو ذنب الحب.

الحب؟!! كلا إنه الجنون لا الحب.. جنون الألوان في حقولها الخضراء وخطوط شفتيها الناضجة في إغراء.. في تناسق قدها الملكي وصفحة جبينها البراق.. إنه الجنون يا صديق لا الحب.

أكد صاحبي أنها حالة ستمر في سلام.. وتلطف بحالتي فدعاني لقضاء بضعة أيام في دنياه العبثية القادرة على إخفائها من ذاكرتي.. فالدنيا بالنسبة له منتهى العبث والجنون.. وأعلى درجات الجنون منها، رجل يقبل أن تملكه امرأة حد العبودية.

فـي ليلـة اليـوم التـالي مـن زيـارتي لصـاحبي انتبـاني شـعور يدفعني للعودة فما كان لـي من طاقة على صبر ثقيل ممل وأنـا أعلم أنـي حتمًا سأعود إليها إن كنت قد سافرت عنها بالفعل.

ضحك صاحبي وقال:

- بسيطة.. تزوجها ولا تعلن أحدًا.. فإن تغيرت بك إليك أعلنت ولا تبالي وإن فسد الأمر طلقتها.

صـعقني بكلماتـه المـدويات.. أي زواج يـتكلم عنـه؟ كيـف سولت لـه نفسه أن يفكر بهذا العبث والجنون؟ أوَ يمكن أن تكون تلك هي صاحبتي ويكون لي منها ولد أو بنت؟ كلا، عذابات الروح أهون من هذا الجنون.

وعـدت إلـي بيتـي أفكـر فـي هـراء صـاحبي.. فكرتـه ماجـت بداخلي كإعصار غاضب نتج عن نفس تواقة إليها.. فإن

كان ذلك هو الحب فأنا أبغضه إن جعلني أعمى فحتمًا سيرتد لي بصري وأكون حينها من الخاسرين.

عشت أيامًا متشابهات أصارع نفسًا لوامة تدفعني إليها.. وعقلاً يرفضها بمنطق التكافؤ.. فهل التكافؤ في الحب أمر ضروري لدوام الحب؟.

كنت قد وصلت من العناء والعناد المدى.. فعدت إليها أروي بها ظمأ نفسي.. أنهل من حضورها ما يسد فجوة اشتياقي في الأيام الفائتة.. كنت إذا لامست يدها تمنعت بدلال أنثوي زادني رهقًا.. وإذا حاولت الاقتراب لشفتيها ابتعدت وأنذرت إن عدت لذلك مرة أخرى فلن أراها.

لذلك لم أجد بُدًا أو خروجًا آمنًا مما أنا عليه غير الزواج منها وتذكرت قول صاحبي..

- إن تغيرت بك إليك أعلنت وإن فسد الحال طلقتها.

obeikan.com

وقد فعلت

عشت معها أيامًا هانئة.. لم أبرح عنها قيد أنملة.. فكل قطعة منها جنة بها أنهار من خمر.. في أول شربة ضاعت نفسي أو ضعت أنا منها.. وتبدلت الأرض غير الأرض والزمان غير الزمان.. وتوهمت حينها أنه الخلود.. رسمتها في كل حالات الصحو والنوم.. رسمتها كالملائكة والفراشات.. رسمتها كليوباترا على صفحة البحر من راكوتيس.. ولو كان البحر مدادًا لجمالها لنفد البحر وما نفد الجمال منها.. لا أعرف حينها أكانت قد استعمرتني أم كنت أنا المستعمر المجنون؟

ارتويت منها حتى اكتفيت.. وكانت بداية الكفاية حين بدأت أشعر بسأم لصمتها المطبق علي جهل أرهقني فكانت إذا تفوهت قالت ما لا يعنيني وإذا فعلت أصابتني بحمى الألم والندم.

حاولت معها أن تكون لي كل نساء العالم إذا أرادت.. ولكن تبدلت رائحة الياسمين برائحة المأكل والغسيل وتمنيت لو كنت قد ابتعت الياسمين فقط وأبدعت لوحتي.

obeikan.com

obeikan.com

الحب في عش العصافير

في زاوية من شرفة منزلي أتنفس نسائم لذكرى عصفور أنهكه وأهلكه الحب.. أسمع ترجيع صوته الذي لا يزل عالقًا لا يغادر سمعي.. أحلق بعين دامعة في عشه الخشبي وأستحضره من الغياب طيفًا يلعب فوق أرجوحته النحاسية التي صنعتها بيدي.. ولازلت أملأ قارورته كل يوم ولن أتواني أو أهمل شيئًا كنت أفعله.

obeikan.com

أذكر أني اشتريته من بائع جوال في سوق الجمعة بحي العطارين... عصفور كناري لونه أخضر مطعم باصفرار رائق.. لم يستغرق عندي إلا بضعة أيام وقد بلغ فيها مأمنه واطمأن على نفسه مني.. وارتاح لحركة يدي ولم يجزع منها وأنا أنظف له العش وأنظم، كما أكل منها وشرب دون خوف أو تردد...

وكان يعلن عن رشاقته في مداعبة كانت تسره، فكنت إذا لامسته مسح برأسه أناملي وعض عليها بمنقاره حتى يستشعر التواء إصبعي من الألم فيثب لأرجوحته مختالا بما فعل، وإذا ما كررت وبسطت له يدي كرر ما فعل متباهيًا باسطًا جناحيه.

آنست به وحدتي وراق لي إنصاته لأدق أسراري الجاثمة على صدري والتي لم أكن أستطيع البوح بها لبشر.. فالبوح لكتوم شفاء للصدور.. كنت أعترف له بأخطائي التي لم تكن بمثقال ما أراه من البشر.. بكيت أمامه كثيرًا حالي إذا

ضاقت بي الدنيا بما رحبت فكان ينظر نحوي متجهمًا ولم تأخذه طرفة عين إلا إذا انتهيت وأنهيت ما أنا عليه.. وتمنيت إن كنت قد بلغت من العلم منطق الطير لاتخذته خليلاً.

تأخرت عنه ذات يوم إلى ساعة ليل متأخرة.. وجدته حزينًا منزويًا لا يقبل مني مداعبة أو زادًا من ماء أو طعام.. كان يؤنبني بصمته وانزوائه إذا فعلت شيئًا أغضبه وإن كان سهوًا مني.

دخلت غرفتي وأنا أشعر نحوه بالأسف.. وفكرت ليلتها في شراء عصفورة يأنس بها في ليل وحدته.. فلم أرضَ أن يعيش مكبلاً بوحدته مثلي.. أما أنا فقد عزفت عن الزواج بعد حبي لفتاة تمنيت أن تسبق عمري.. لكن أقدار المرض والموت أسرع من تدابير البشر.. فآثرت بعدها العيش وحيدًا فضلاً عن زواج لا يمسه الحب.. لأني آمنت أنها كانت كل الحب.

في الصباح من تلك الليلة ابتعت له عصفورة أنيقة تسر الناظرين.. أدخلتها في عشه ورحت أترقب الأمر من بعيد.. وقف على أرجوحته ينظر إليها متفحصًا إياها دون حراك.. وهي شاخصة إليه في انتظار إشارته.. أي إشارة لا أدري.. وراح يذرع العش ذهابًا وإيابًا معلنًا عن نشوته ورشاقته.. إلى أن نفضت الخوف وآمنت روعها واطمأنت له فشاركته النشوة وتركتهما يتأرجحان.

وذات فجر هادئ لطيف ترقبتهما من وراء ستار.. يتهامسان بركن منزوٍ.. وددت حينها لو كان القدر أمد بعمر فتاتي لهمست في شفتيها كما ذلك العصفور يفعل بعصفورته وكنت ركنت إلى صدرها فأغفو عن عالمي إلى عالمها.. وفي غفلة المحبين تزور الذكرى قلوبًا هائمة تواقة للحب.. وأنا لم أقبل الحب إلا منها.. أي امرأة تستطيع أن تجعل لها عبدًا لكنها مهما فعلت لا تستطيع أن تأسر قلبه.. مرت أمام

عيني باسمة راضية حين ظنت البقاء معي وهي تجهل أن القدر ينصت إليها وقد قضى ألا تبقى لأموت أنا حيًا..

طفرت عيني دمعات من وجع الحنين فانتبهت لولادة النور من الظلام في الغبش.. فقط في الغبش.

انتهيت من عملي مبكرًا فذهبت إلى السوق أبتاع حبات من أطعمة العصافير وبعض الفيتامينات والأدوية الاحتياطية.. ولم أنس الخس والجرجير كما نصحني بائع العصافير.. كما أكد أيضًا على مداومتي لهما بالبيض المسلوق... وعدت إلى البيت كرب أسرة يحمل بين يديه الزاد من الحلوى.. وناديتهما بحركة من فمي فلم أسمع لهما صوتًا فقد اعتدت أن يستقبلا إشارة فمي بمزيد من الصياح.. وضعت كل شيء بيدي فوق مائدة صغيرة تتوسط الصالة، وهرولت إلى شرفتي.. وجدت عصفورته نائمة منهكة وهو باسط جناحيه في ذهول.. مددت يدي أحركها ذات اليمين وذات الشمال دون جدوى.. أنفاسها مترددة في خمول... ذابلة العين في

obeikan.com

احمرار قان.. كنت في حيرة من أمرها فلم يسبق لي تربية الطيور أو أي نوع آخر.. اتصلت بصديق كنت أعلم أن له في الأمر باع.. فسألني عن حركتها وأنفاسها ولون عينيها.. شرحت له ما سأل وقال إنها تعاني من التهاب حاد بالقصبة الهوائية ونصحني بإعطائها مضادًا حيويًا ولباب الخبز المنقوع بالحليب ووضع قطرتين من الجليسرين في قارورة الماء... فعلت كل ما أوصى والعصفور الحزين يقف عند رأسها شاحبًا لم أعرف أكان من شدة الخوف عليها أم كان لجفائها.. حاولت مداعبته فنأى عني رافضًا يدي المبسوطة إليه.

دخلت غرفتي أمدد على فراشي شاخصًا نحو لا شيء.. والقلب مفعم بالحزن مهموم بخوف على حال العصفورين إذا قضى بينهما القدر بالفصل.

هل غريزة الطير في الحب كإحساس الإنسان؟ أم هم أرقى وأصدق؟

وتذكرت حالتي حين سمعت الخبر الأكثر إيلامًا في حياتي.. وفاة محبوبتي التي أحببتها حد الاعتناق.. كدت أفقد حينها كل شيء حتى نفسي آمنت أن لا حاجة لها للحياة لأنها كانت كل الحياة.. فكنا قد اتفقنا على موعد الزواج وتهيأت أنفسنا والناس من حولنا لذلك الموعد الذي عشناه قبلا دون أحد سوانا.. كنا به نحلم ونحلم حتى نرتقي سحب السماء.. كنا لا نعلم أننا سنسقط من الفضاء إلى أحلك القضاء.. أصيبت بمرض فيرس الكبد الذي التهمها بشراسة وأخذها مني أخذ عزيز مقتدر في بضعة أيام كنت قد تألمت فيها كما تألمت هي، وإن كانت قد ماتت مرة واحدة فأنا مت بعدها مرات.

صياح العصفور المتواصل أخرجني من غمرة الذكرى فنهضت إليه فزعًا مسرعًا أتخبط في كل شيء أمامي.. وجدته يقلب عصفورته تحت قدميه رافضًا السكون منها... أو كان يؤنبها على الجفاء لأنه لا يدرك معنى الموت؟ لا

openkan.com

أدري.. مددت يدي أجس نبضها فتأكدت من الأمر.. تجهمت برهة واستعبرت يميني دمعات لفحتني.. واختنقت بغصة تعصر حلقي.. والعصفور يحركها بتحنان أو ذهول.. استجمعت قواي وأخرجتها رغمًا عنه بعد أن منعني بقوة أدمت يدي.. وتركته يحترق أو يموت حيًا مثلما كنت أنا بعدما أسلمت محبوبتي الروح لخالقها..

وعند عودتي وجدته هادئًا بركنيهما.. نظر نحوي يؤنبني في عادته بصمت وانزواء.. ظننت حينها أنه ربما يكون غاضبًا لعودته وحيدًا.. فابتعت له عصفورة تسري عن نفسه كما توهمت لكنه رفض دخولها العش وكاد يقضي عليها لولا أن أمسكت بها ورددتها لصاحبها.

وفتحت له العش ليطير لكنه أبى.. وبعد يومين أصبح العش فارغا.

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

رادوبيس

رادوبـيس التـي أقصـد ليسـت الغانيـة الجميلـة فـي روايـة محفوظ.. إنما هي مقهى رادوبيس الواقعة قبالة البحر بحي الأنفوشي.

بعد الانتهاء من عملي كساعٍ بإحدى المدارس الابتدائية أحسو قهوتي المريرة برادوبيس ولا أعرف لماذا أشتهي مذاقها المرير.. ربما لأن كل شيء بحياتي أصبح مذاقه مريرًا.. فقد ورثت الفقر المدقع المخلص عن أبي الذي عاش طيلة

obeikan.com

حياته بعفة وأمانة فأصبح فقيرًا.. ذلك غير سوء حظي التابع لي كما الظل.. ناهيك عن خصاصتي للزواج إلى أن بلغت من العمر ثلاثين عامًا ولم أدخر سوى بضعة آلاف بالكاد تكفيني لجنازة أبي وأمي إذا قضى الله قدره.

حاجتي للزواج ورغبتي الجامحة في النساء يدفعاني إلى رادوبيس، أتفحص المارة منهن بعين اللهفة والحسرة على حالي.. منهن كريمات يتعطفن بنظرة باسمة وهن يدركن مغزى العين من رغبة فائرة تلهب وجهي أمامهن ليس خجلاً إنما من لهفة وفقر.. ومنهن يتحفظن ويتجهمن أمامي بنظرة حادة المراد منها تأديبي فلا يمنعهن غير رادوبيس حصني المنيع من أذيتهن.

ومن بينهن امرأة واحدة، كلما مرت أمامي أمطرتني بوابل من نظرات تعصرني عصرًا، وتأخذ روحي كغانية جميلة.. حاولت مرات أن أحادثها لكني ترددت ولم أفعل، وأكتفي بأن ألملم شتات نفسي التي تتشطر أمام خطاها الغزلانية

الجذابة.. ربما لأنها كانت أكثر جمالاً وخفة ممن عرفتهن، فأنا أعرف جيدًا قدر نفسي... فقد كنت أكتفي بقبلة غالبًا ما تكون ماسخة من أم سنية عاملة النظافة بالمدرسة، أو أعانق في خلسة سعدية الإدارية التي لم تسعد يومًا بعد أن شعرت بعنوستها.

أما تلك المرأة فلها حلاوة ترهبني من الاقتراب إليها.

وذات يوم نفضت عن عقلي هواجس الخوف والتردد.. ونهضت إليها ثابتًا واثقًا واعترضت خطاها...

وقفت وسألتني بحدة فاتنة:

- عايز إيه؟

قلت مضطربًا:

- عايز أتكلم معاكي.

تصنعت التأفف:

- عايز إيه طيب؟ إتكلم.

- بصراحة أنا معجب وعايز أتعرف.. من زمان وأنا بحاول أكلمك، لكن بخاف من جمالك وأقول يا واد معقول قمر زي دا يكلم إنسان زيك؟
- قمر؟ (زامت ولوت شفتيها) قمر بالستر يا اخويا.. طيب وماله نتعرف.

سألتها دون مقدمات لأني أدركت أن لا حاجة لأي مقدمات.

- الجميل منين؟
- من العطارين.
- أجدع ناس.
- تشكر يا ذووء.
- وأنا من بحري.. جمب قدورة بتاع السمك.
- أهلاً وسهلاً.. اتعرفت خلاص؟ ممكن أمشي بأه؟
- لسه بدري.

لوت شفتيها الملتهبتين فألهبتني:

- عايز إيه تاني مش كفاية كدا؟

obeikan.com

سألتها وقد جف حلقي:

- إيه رأيك في أكلة سمك؟

- وبعدين؟

- أبدًا، إحنا ناكل السمك وهو يتصرف.

ضحكت بميوعة زادتني لهفة ورغبة:

- دا إنت مشكلة، وفين بأه إن شاء الله.

- مش مهم فين.. المهم ناكل سمك.. عندي.. عندك.. في أي مكان.

سكتت برهة وهي تجول في عيني وابتسامة جرئية عالقة بشفتيها المرتعدة برغبة مثلي:

- طيب اسمع، بكرة الساعة عشرة الصبح قابلني عند سنترال المحطة ، ولما تلاقيني خليك ورايا، وبعد ما أدخل البيت أدخل ورايا بعشر دقايق.

سألتها للتأكد:

- عشرة الصبح.

obeikan.com

- أيوه يكون جوزي نزل، سلام.

قالتها بسهولة وتركتني مبلل الأركان.. أسرعت للبيت لأطفئ النار المشتعلة دون مساس، فما بالي وإن فعلت!..

بعد دش بارد تمددت على فراشي مشدوهًا بما رأيت منها.. شفاه بارزة مرتعدة تثير الرغبة والجنون.. عين دعجاء تحفها رموش طويلة كأشواك الصبار.. يعلوها حاجبان مقرونان يود الناظر لو يلمسهما بدهشة وإعجاب.. غير أنف دقيق دائري عليه وافر من مرح ساذج.. وقوام فولاذي ينقسم على نفسه بفن ودقة دون أي خدوش أو ترهل.

وكما أخذتني من نفسي أخذ جميل مقتدر، راودني الخوف وتساءلت، ماذا لو كانت ممن يجلبن الرجل مثلي إلي ديار غريبة بفتنة نساء عاهرات يصطنعن الرغبة ثم ينقض عليه رجال منها فيجردونه من ملابسه ومما يملك؟.. ولكن أنا لا املك ولن أملك غير وجبة السمك الدسم التي وإن خابت

هواجسي ستكون هي الطاقة الدافعة لكلٍ منا بأن يسبح في أعماق الآخر.

وليكن ما يكون.

في اليوم التالي كنت قد ابتعت وجبة طازجة من السمك المشوي.. وكنت قيد الانتظار بلهفة ورهبة، وفي تمام العاشرة رأيتها تمر بين الناس، تغدق عليهم من ثمارها ما يثير الطمع والتمني.. واضحة في خطاها كالأوزة، وبابتسامة عريضة أربكتني أشارت نحوي بأن أتبعها ففعلت.. حتى دخلت إحدى البنايات القديمة، وبعد عشرة دقائق دخلت أنا على حذر وصعدت درجًا رخاميًا متآكلاً حتى الطابق الثالث.. وجدتها بانتظاري داخل شقتها المتواضعة وغلقت الأبواب وقالت هيت لك فلبيت دعوتها.

وعلى فراشها علمتني ما لم أعلم وما لم يخطر لي ببال، علمتني كيف تكون الأنثى كفارسة تعتلي جوادها برشاقة، وكيف تكون ساحرة أخاذة، تسرق الرجل من نفسه، من عقله

ليغيب بها عمن سواها.. علمتني كيف يكون الرجل قويًا يقلب عشيقته كيفما شاء وقتما شاء، ومتى يكون ضعيفًا مهزوزًا عندما تندفع منه نشوته.

قضيت معها سويعات شعرت بعدها أني خلقت من جديد، فقد عدت إلى البيت منتشيًا أشعر بحيوية تغمرني مفعمًا بنشاط غير عادي.

وبعد ثلاثة أيام من اللقاء هاتفتني وأبدت رغبتها في لقاء آخر، سعدت لطلبها لأني شعرت حينها بفحولتي ورجولتي ولأني سأعود لجنتها أقطف من ثمارها ما أشاء.. وابتعت السمك ليفعل بنا الأفاعيل كما المرة الأولى.. ووجدتها أجمل مما كانت في رداء يشف ما تحته في إغراء يذهب العقل.. يومها أخرجتني عن عالمي لأسكن أعماقها وهي تتلوى فوقي مثل أفعوان ملتهب.

بينما كنا كذلك سمعنا طرقات متتاليات على الباب، فانتفضت من فوقي فأفزعتني، جلست جانبي وأنصتنا إلى

الطارق في صمت وبلا حراك لعله يعود أو يموت، لكنه ظل يكافح ولم يهدأ.. لوت شفتيها بتأفف ونهضت ترتدي جلبابًا أسود وحذرتني أن لا أقوم من مقامي حتى تعود.

انكمشت في نفسي وانتظرت النجاة أو الفضيحة.

وعلى حالي تضرعت لله دون خجل.

سلّم يا رب، فبعزتك وجلالك دي حتكون آخر مرة، يا رب استر وحياة حبيبك النبي.

(وإذا مسّ الإنسان ضر دعانا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسّه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون)[٤]

لذلك لم يكشف الله عني الضر، لأنه حتمًا كان يعلم أني سأعود. سمعت لها صريخًا ممزوجًا برجاء وتوسل فقمت مضطربًا أدخل في سروالي مذعورًا وبالكاد ارتديته، وقبل أن أتم ستر ما تبقى مني عاريًا دخل بها مارد جبار يسحبها من شعرها الملفوف حول يديه الغليظتين وقد تحولت الأوزة إلى

(٤) سورة يونس آية ١٢

obeikan.com

دجاجة تصيح عند ذبحها.. انتباتني حالة من الروع ألزمتني الصمت وأحسست بدنو الأجل على يد المارد المسعور وسألها.

- مين دا؟

ردت بين خوف وتوسل:

- والله ما حصل حاجة.. أنا أفهمك الموضوع.. أبوس إيدك بلاش فضايح.

صرخ فيها بقوة فانتفضت خوفًا:

- فضايح إيه يا بنت الجزمة.

فك يديه من شعرها ولطمها بغيظ، ظننت حينها أنها ماتت في الحال ولكن رأيتها كحية تسعى بعيدًا عنه، والتفت نحوي ثم دنا فتدلى والشر يتاطير من عينيه، وضرب رأسي برأسه فشعرت بارتجاج دارت على أثره الدنيا من حولي وكدت أفقد الوعي والسيطرة على حالي وبصوت صعقني.

- دا انت نهار أمك أسود.. عاملي روميو.

بكيت أمامه كنساء ضعيفات بعد أن سلبني إرادتي وقواي.. فلم أستطع الدفاع عن نفسي، حتى وإن كنت قد استطعت لذلك سبيلاً فأي كذب كان من الممكن أن ينجيني سالمًا مما أنا عليه.

والتفت نحو صاحبتي وقد اتسعت عيناه من الشر وأطبق أنامله بغيظ، فزادها خوفًا على خوف، ثم انكب عليها مطبقًا على رقبتها بغلظة حتى فاضت الروح لبارئها، ولما ابتعد عنها وهو لا يزل جالسًا رفعها من الأرض نحوه وكأنه يهذي.

- ليه؟ ها.. ليه عملتي كدا؟ أنا عملتلك إيه؟ دا كنت بحبك.. بتبيعيني عشان خاطر كلب زي دا.

ونهض من عليها والتفت نحوي كثور هاج بضربة سكين ردها في صدري طعنات أودت بحياتي في الحال.

وبعد فوات الأوان دخل الجيران من كل فج وأمسكوا به فأوثقوه، وغطوني وصاحبتي إلى أن جاءت الشرطة وأمرت بدفني ودون أي صلاة جزاء لما اقترفت من ذنب.

حملوني في نعش خشبي.. سمعت حولي أصواتًا متداخلة.

الله يرحمه، كان صغير، ربنا يجحمه الزاني، يا أخي حرام عليك أطلب له الرحمة.

صرخت بأعلى صوت دون حراك – أخروني – أخروني أو أخرجوني، لم يسمعني أحد.. وأخذني الحانوتي أخذة غاضبة فربما كان يعلم فعلتي فرماني بالجب الأدهم وأحكمه بعناية.

أظلم القبر من حولي فوجدتني ودون إرادتي أهم بالجلوس باسطًا قدميّ.. فبدا لي رجل أسود قبيح، يرتدي ثيابًا سوداء سألني:

من ربك؟ – مش فاكر.

ما دينك؟ – صدقني مش فاكر أي حاجة.

من الرجل الذي جاء فيكم؟ – راجل مين؟ إنت ليه مش مصدق إني مش فاكر حاجة؟ إنت مين يا عم؟

وانفرجت أمامي كوة عن نار وهجها كاد يسلخني ثم قال: انظر هذا مكانك.

ثم أغلقها ونادى بصوت غليظ – يا أقرع

قلت مستفسرًا مذعورًا:

– أقرع مين يا عم.. مين إنت؟

فإذا بثعبان ضخم كالمارد يخرج لي ويحمل بين يديه عصى غليظة إذا ضرب بها جبلاً صار دكًا.. فانكمشت ولاصقت الساتر الخلفي، قال له الرجل بلهجة آمر: – قم بمهامك.

وكاد الثعبان يفعل بي المهام السوداء لولا أن صرخت وناديت الرجل فأشار إليه أن يتوقف وسألني بتأفف:

– عايز إيه؟ أنا ورايا شغل كتير مش فاضيلك.

قلت والخوف والبكاء يرهقاني:

– أنت رايح فين؟ أكيد فيه سوء تفاهم.. استنى عليا أفهمك.

- قولتلك مش فاضيلك.
- طيب أنا عملت إيه لكل دا؟
- أكيد عملت حاجة منيلة على دماغك.

اصطكت أسناني وارتعدت فرائصي.

- طيب خد الأقرع معاك وكفاية الضلام اللي أنا فيه.
- لا راد لقضاء الله.
- ليه كل العذاب دا؟
- لأنك عصيت.
- ولأني عصيت أتعذب بالشكل دا؟
- وما ربك بظلام للعبيد.. قولي إنت عملت إيه في دنيتك؟
- ولا حاجة.. عشت فقير ومت برضو فقير.. كنت راضي وقانع بحالي.
- لو كنت رضيت وقنعت فعلاً ما كنتش عصيت.. إيه المعصية اللي عملتها عشان دا يبأى حالك.
- الزنا.

obeikan.com

تكلف الرجل ابتسامة ساخرة:

- غريبة.. كل إنسان كلمته قبلك وكان حاله زي حالك برضوا كان طماع..

قولي يا أنت أترضاه على أمك؟

صرخت – لا.. ، على أختك – لا.. لكن هي اللي فتنتني.

قال باستخفاف:

- وكان فين عقلك يا مسكين خليها تنفعك (نادى) يا أقرع قم بمهامك.

اقترب الأقرع بعصاه الغليظة وقال بصوت هز المكان:

- تشرب شاي؟

صرخت – لا ، مش عايز.. أنا عايز أمشي من هنا.

- يا ابني تمشي تروح فين.. بقولك أمك نامت أعملك معايا شاي؟

شكرت أبي وعدت لرادوبيس.

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

obeikan.com

obeikan.com

الملكة والصعلوك

خالد.. أحد صعاليك الدنيا المتأجرحين فيها بين الحزن الهائل والبهجة الخجول، بين اليأس المخيف اللعين والأمل المبسوط على استحياء.. كاتب مغمور، بثمن بخس يكتب لطلبة الجامعات عروضًا مسرحية من فصل واحد.. تسكن أحلامه قطعة صغيرة على رقعة انتظار ممل يأمل منها أن يصبح كاتبًا يعرفه الناس.. يقطن إحدى الحارات الشعبية الهمجية المكتظة بأمثاله الناقمين على الحياة والأقدار..

obeikan.com

يشتغل في الصباح بإحدى محطات السولار التي بالكاد يكفي راتبها لشراء بعض الكتب ومساعدة والده.

ينأى في كل ليلة بأحلامه الصغيرة الوارفة وبقلمه وكومة أوراقه من ضجيج وعجيج جاهل متجاهل إلى قصر ثقافة الأنفوشي.. يقرأ ويكتب ويحلم.. يتعملق.. بما قرأ بنادي القصة والشعر.. يهيم بين أروقة الموسيقى بركن الكورال.. ينغمس في المكتبة بين الكتب.. يدخل التاريخ فيستشعر عظمة العبور للبناء وحركة العالم الدائبة منذ البدء وبغير هوادة أو انتهاء.. يجالس الأدباء على استحياء فلم بيخلوا عليه بما آتاهم الله من فضله، طه حسين علمه العزف على أوتار الكلمات الرقيقة العميقة، والحكيم علمه كيف يكون الحوار قالبًا أدبيًا لا يخلو من تشويق دائم يملك النظارة والقراء.. وغيرهم ممن يتتلمذ على حروفهم من الأدب والفن.

رانيا.. ملكة بجمال رقيق رائق، فاتنة كما أشعارها المرسلة في الحب.. تقطن أحد الأحياء الراقية الهادئة.. والداها من

أمهر وأشهر الأطباء، كان يتمنيان أن تسلك ابنتهما الوحيدة المدللة مسلكهما من الطب، إلا أنها آثرت الأدب وقالت فيه إنه مثل الطب في التشريح، نجيب محفوظ طبيب ماهر في تشريح النفس البشرية كما جاء عنه في رواياته الأشهر – الثلاثية – ، وكذلك أحدب فيكتور هوجو وغيرهم وهي تأمل أن تكون مثل هؤلاء.

خالد ، رانيا... التقيا بقصر ثقافة الأنفوشي والتمسا بمكتبته أروقة الأدب الفرنسي الكلاسيكي وبلاغته الرومانسية وكذلك التزام موليير وجان راسين بقواعد الأدب المسرحي حينذاك.. ولم يختلفا في واقعية الأدب الإنجليزي النافذة على الكون والبشر عند جورج أورويل وتشارز ديكنز مثلاً.. كما تعرضا للأدب الروسي الأنيق الملتزم عند تولستوي وديستوفسكي.. وكان من أهم ما اتفقا عليه هو الأدب الروائي عند يوسف زيدان وأحلام مستغانمي وغيرهما من الروائع الأدبية الحديثة.

رانيا..... أصبح خالد هو الأهم في حياتها.. لمست فيه نقاء السريرة وعفة النفس والصفاء، كما لمس فيها قلبها الدافئ فزادها بهجة وإشراقًا.. تغير فيها الجمال إلى الأجمل فبدت كفراشة بين زهور الأحلام العالقة به، هكذا يفعل الحب، ينثر من لدنه نشوة في القلب فيغدو القلب حالمًا طائرًا في خيال رحب.. اختلفت به ولم تختلف عنه، تميزت به ولم تتميز عنه...

وفي لقاء كلقاء السحب المتهادية على صفحة سماء ربيعية اعترفت له براحتها بين راحتيه وتمنت الجوار متى عاشت.

خالد..... المتأرجح دائمًا، لم يبح لها يومًا بأنه أحد صعاليك الدنيا التي تداهنه بأمل كاذب وعبور خادع من اليأس إلى السعادة، ذلك خوفًا أن تراه على غير ما تراه بعينيها العفيفتين وإحساسها الطيب الصاعد نحوه بقوة.. فقد أصبحت بالنسبة له سماء، وهو في نظر نفسه لازال صعلوكًا يتسكع على أبواب الدنيا يطلب منها بتوسل وإلحاح

أن يعيش كما يشتهي، واشتهاؤه ليس طمعًا في ملك أو سلطان إنما طمع في الوصول إليها بقلمه وعمله.

قالت له ذات يوم – أحبك يا خالد.

فآثر الصمت عن بوح مؤرق فطفقت:

– قلت أحبك... ماذا أفهم من صمتك؟

جال في عينيها بعمق كجواد ينطلق في أعماق أرضها باحثًا عن الظل، وقال في نفسه:

ماذا تريدين أيتها السحابة أن تسمعي من الصعلوك؟ ما كان يجب أن أحبك ولكن دون إرادتي أحببتك... ولذلك سأعترف لك لأكون صادق الوعد والحب.

وبدأ يتحدث عن حياته وأسرته.. شرح لها كيف يأكل الفقر من الأوتاد والأحلام، كيف تموت البسمة عند أعتاب الخيبات، حدثها عن الحارة التي يسمع فيها صدى الفقر في

obeikan.com

كل ليلة وعند كل غبش، حدثها عن أحلامه العليا التي تعانق السماء وسرعان ما تسقط لتتكسر فوق يا فوخه.

رانيا... وكأن كل ما ذكره رفعه عندها درجات من الحب.. وزادها شغفًا وفضولاً لرؤية أسرته وحارته لتكون شاهدة عيان على حياته قبل أن يخرج منها كاتب عظيم، كما ظنت.

خالد – رانيا... بإعجاب وإشفاق كانت تتفقد معه حارته، وبدهشة وذهول تطوف كسائحة غريبة تشاهد أثارًا غريبة لأول مرة، أما هو فكان مرشدها الأمين – ذلك هو عم صلاح العجلاتي كبير الحارة والرجل القادر على حل الأزمات المفتعلة من الهمجية وبلادة التفكير، أما هذا فهو عم عبد اللاه العطار أو صيدلي الفقراء، وتلك هي أم عفاف بائعة الفطير، هي أم مثالية توفي عنها زوجها وتركها في ريعان شبابها بثلاث بنات وولد تحاول العبور بهم إلى الحياة الكريمة بعيدًا عن هنا.. وذلك هو أبي وتلك هي أمي وهؤلاء إخوتي وتلك هي حياتي.

obeikan.com

رانيا..... تغلبها الحيرة وتفسد عليها رائحة الحب، وتدك هامتها تساؤلات هائلة.

أوَ يمكن أن تحتمي في الحب لتعيش حياة خالد إن لم يستطع أن يتحول عنها لحياة أفضل؟ أوَ يمكن لها أن تذوب بين أسرته وحارته الغريبة؟ هل يمكنها الاعتراف لوالديها بحقيقة حبها لخالد المتأرجح والظروف المتهالكة المتحجرة والمحاطة به من شظف العيش؟

هل يتفهمان أن الحب يمحو الفوارق؟

هل حقا الحب يمحو الفوارق وتذوب له كل الحدود؟ .. ربما إن أباها مؤمن بأن الحب ما هو إلا سراب أو خيال في رواية.. كما أنفقت أمها من الأيام لتقنعها بأن الأهم من الحب هو التوافق العلمي والاجتماعي بين الزوجين.

وأخذها الوسن على وسادة الحيرة من الحب.

خالد..... صبيحة ذات يوم وأثناء عمله بمحطة السولار، كانت رانيا وأخوها بسيارته الفارهة أمام عينيه.. فارتبك من نظرة عينيها المتأرجحة بين السخط والرضى.. راح يملأ لهما ما شاء أخوها من السولار.. في ذلك الحين تذكرت ما رأت وسمعت في زيارتها السياحية القصيرة لأسرته وحارته.

هزتها حركة السيارة فانتبهت إلى أخيها يدفع إليه بنقوده قائلاً:

- احتفظ لنفسك بالباقي.

وانطلقا....

خالد – رانيا.... يتساءلان

هل الحب يمحو الفوارق؟... هل تذوب له كل الحدود.

ربما.

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

obeikan.com